□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الأَدَب □

« اعلم – رحمَكَ الله – أنَّ الأدب إن تطمّعت[1] به نجع ، وإن تعطَّرت به سطع ، وإن تردَّيْت به نفَع » . وأن مَنِ اكتسب أدبًا اكتسب نسبًا ، وأن الأدب سبب لِلْمُلْكِ الأرب ، ولقطات الأدب قرضات الذهب ، وأن حُلِيَّ الرجال ما يُحسِنونه ، وحُلِيّ النساء ما يلبسونه .

فيا لائمي دعني أُغالي بقيمتي　　　فقيمةُ كلِّ الناسِ ما يُحسنونهُ

فذكِّ عقلك بالأدب ، كما تذكِّي النار بالحطب . واعلمْ أن الأدب أقرب الطرق إلى الله ، فلله طرائق بعَدَدِ الأنفاس ، وأقرب الطُّرُق إلى الله : طريق الذلِّ والانكسار ، وهما من خصال الأدب .

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم نارًا** ﴾ [التحريم: ٦] .

قال ابن عباس : أدِّبوهم وعلِّموهم .

وهذه اللفظة مُؤْذِنة بالاجتماع ؛ فالأدب : اجتماع خصال الخير في العبد فهو كما قال محمد بن علي القصَّاب . أخلاق كريمة ، ظهرت في زمان كريم ، مع قوم كرام ومنه : المأدُبة ، وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس ، ولا يتكامل الأدب في العبد إلّا بتكامُل مكارم الأخلاق .

قال يوسف بن الحسين : بالأدب يُفهم العلم ، وبالعلم يصحُّ العمل ، وبالعمل تُنال الحكمة ، وبالحكمة يُقام الزهد ، وبالزهد تُترك الدنيا ، وبترك الدنيا يُرغب في الآخرة ، وبالرغبة في الآخرة تُنال الرتبة عند الله .

---

(١) رغبت في الشيء شهوة له .

قال أبو عثمان : إذا صحَّتِ المحبَّة ، تأكَّدت على المحبِّ ملازمة الأدب .

وقال ذو النون : إذا خرج المريد عن استعمال الأدب ، فإنه يرجع من حيث جاء .

واعلم يا أخي أنّ مَن لم يتأدَّب للوقت ، فوقتُه مقْتٌ .

قال الجنيد : مَن أعان نفسَه على هواها ، فقد أشرك في قتْل نفسه ؛ لأن العُبودة ملازمة الأدب ، والطغيان سوء الأدب .

فالْزَم الأدب ظاهرًا وباطنًا ، فما أساء أحدٌ الأدبَ ظاهرًا إلّا عُوقِب ظاهرًا ، وما أساء أحدٌ الأدب باطنًا إلّا عُوقب باطنًا .

ولله درُّ شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك حين يقول : أدَبُ الخدمة أعزُّ من الخدمة . ويقول : طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدِّبون . ويقول : نحن إلى قليل من الأدب أحوجُ منَّا إلى كثير من العلم .

ولِمكانةِ الأدبِ ، تجدُ كتُبَ التراجم مشحونةً به والنصّ عليه :

قال مخلد بن الحسين – وذكرَ عتبة الغلام وصاحبه يحيىٰ الواسطي –: « كأنما ربَّتهم الأنبياء »[1] .

وقال أبو عاصم : سمعتُ سفيان الثوري يقول : « كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث ، تأدَّب وتعبَّد قبل ذلك بعشرين سنة »[2] .

« قيل : لمّا ورد أبو حفص العراق جاء إليه الجنيد ، فرأى أصحاب أبي حفص وُقوفًا على رأسه يأتمرون لأمره ، لا يُخطئ أحد منهم ، فقال :

---

(١) الحلية ٦/٢٣٥ .

(٢) الحلية ٦/٢٦١ .

يا أبا حفص ، أدّبتَ أصحابك أدب الملوك . فقال : لا يا أبا القاسم ، ولكن حسن الأدب في الظاهر عنوانُ الأدب في الباطن .

قال أنس بن مالك : الأدب في العمل علامةُ قبول العمل .

وقال عبد الله بن المبارك : مَن تهاون بالأدب عُوقب بحرمان السنن ، ومن تهاون بالسنن عُوقب بحرمان الفرائض ، ومَنْ تهاون بالفرائض عُوقب بحرمان المعرفة .

وقال ابن عطاء : النفْس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، والنفس تجري بطباعها في ميدان المخالفة ، والعبد يردُّها بجهْده إلى حسن المطالبة ؛ فمَن أعرض عن الجهد ، فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية ، ومهما أعانها فهو شريكها .

ولله درُّ القائل في وصف عالي الهمة في الأدب :

إذا تَرقَّتْ بهِ عزائمُهُ   إلى الثريا رسا به الأدَبُ

قال شيخ الإسلام الهروي : « الأدب حفظُ الحدِّ بين الغلوِّ والجفاءِ ، بمعرفة ضَرَرِ العدوان » .

قال ابن القيِّم : « هذا من أحسن الحدود ؛ فإن الانحراف إلى أحدِ طرفي الغلوِّ والجفاء هو قلَّة الأدب ، والأدب : الوقوفُ في الوسط بين الطرَفيْن ، فلا يُقصِّر بحدود الشرع عن تمامها ، ولا يتجاوز بها ما جُعلت حدودًا له ؛ فكلاهما عُدوان ، والله لا يحبّ المعتدين ، والعدوان هو سُوء الأدب .

وقال بعض السَّلَف : دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه .

فإضاعة الأدب بالجفاء : كمَن لم يُكمل أعضاء الوضوء ومن لم يوفِّ الصلاةَ آدابها التي سنّها رسول الله ﷺ وفعَلها ، وهي قريب من مائة أدب ؛ ما بين واجب ومستحبّ .

وإضاعته بالغلوِّ : كالوسوسة في عقْد النية ورفْع الصوت بها ، والجهْر بالأذكار والدعوات التي شُرعت سِرًّا ، وتطويل ما السنةُ تخفيفُه وحذفه ؛ كالتشهُّد الأول والسلام الذي حذفُه سنَّة. وزيادة التطويل على ما فعَله رسول الله ﷺ ، لا على ما يظنُّه سُرَّاق الصلاة النقَّارون لها .. ويشتهونه ؛ فإن النبي ﷺ لم يكن ليأمر بأمر ويُخالفه ، وقد صانه الله من ذلك . وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمُّهم بالصافات ، ويأمرهم بالتخفيف وتُقامُ صلاةُ الظهر، فيذهب الذاهب إلى البقيع فيقضي حاجته ويأتي أهله ويتوضَّأ ويُدرك رسولَ الله ﷺ في الركعة الأولى . فهذا هو التخفيف الذي أمَر به لا نقْرَ الصلاة وسرقها ؛ فإن ذلك اختصار ، بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم ، ويُسمَّى به مصليًا ، وهو كأكل المضطر في المخمصة ما يسدُّ به رمَقَه ، فليته شبع على القول الآخر . وهو كجائع قُدِّم إليه طعام لذيذ جدًّا ، فأكل منه لقمةً أو لقمتيْن ، فماذا يُغنيان عنه ؟! ولكن لو أحسَّ بجوعه لَمَا قام من الطعام حتى يشبع منه ، وهو يقدر على ذلك . لكنَّ القلب شبعان من شيء آخر .

ومثال هذا التوسُّط في حقِّ الأنبياء عليهم السلام : ألا يغلو فيهم كما غلت النصارىٰ في المسيح ، ولا يجفو عنهم كما جَفَتِ اليهود ؛ فالنصارىٰ عبدوهم واليهود قتلوهم وكذَّبوهم . والأُمة الوسَط آمنوا بهم وعزَّروهم ونصروهم واتبعوا ما جاءوا به .

ومثال ذلك في حقوق الخلْق : ألّا يفرِّط في القيام بحقوقهم ، ولا يستغرق فيها ؛ بحيث يشتغل بها عن حقوق الله أو عن تكميلها أو عن مصلحة دينه وقلبه ، وألَّا يجفو عنها حتى يعطِّلها بالكلِّيَّة ؛ فإن الطرفيْن من العدوان الضارِّ .

وعلى هذا الحدِّ فحقيقة الأدب هي العدْل . والله أعلم »[1].

---

(١) مدارج السالكين ٢/٤٠٨ - ٤٠٩ . طبعة : دار الحديث .

صاحبُ الأدَبِ العالي مَنِ استكملَ درجاتِ الأدبِ وأنواعه :

اعلم يا أخي أن عالي الهمَّة في الأدب : مَنْ تحقَّقت فيه أنواع الأدب ، وبلغ الكمال فيها ، ومَن ترقّى في درجات الأدب مِن درجة إلى أخرى .

أنــواع الأدب :

[والأدب ثلاثة أنواع: أ - أدب مع الله سبحانه . ب - وأدب مع رسوله ﷺ . جـ - وأدب مع خلْقِه .

أ - الأدبُ مـعَ الله :

والأدب مع الله ثلاثة أنواع :

أحدهـا : صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصة .

الثاني : صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره .

الثالث : صيانة إرادته أن تتعلّق بما يمقتك عليه .

قال أبو علي الدقّاق : مَن صاحَب الملوكَ بغير أدب ، أسلمه الجهل إلى القتل .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : إذا ترك العارف أدبه مع معروفه ، فقد هلك مع الهالكين .

وقال أبو علي : ترْك الأدب يُوجب الطرد ، فمن أساء الأدب على البساط رُدّ إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب ردّ إلى سياسة الدوابِّ .

وقال يحيى بن معاذ : من تأدَّب بأدب الله ، صار من أهل محبَّة الله .

وسُئل الحسن البصري رحمه الله عن أنفع الأدب ، فقال : التفقُّه في الدين ، والزهد في الدنيا ، والمعرفة بما لله عليك .

وقال سهل : القوم استعانوا بالله على مراد الله ، وصبروا لله على آداب الله .

وقال أبو علي الدقّاق : العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة ، ويصل بأدبه في طاعته

إلى الله .

وقال رحمه الله : رأيتُ مَن أراد أن يمدَّ يده في الصلاة إلى أنفه ، فقبض على يده .

وقال عبد الله بن المبارك : الأدبُ للعارف كالتوبة للمستأنف .

وقال أبو نصر السرّاج : الناس في الأدب على ثلاث طبقات :

أما أهل الدنيا : فأكبر آدابهم : في الفصاحة والبلاغة ، وحفظ العلوم ، وأسمار الملوك ، وأشعار العرب .

وأما أهل الدين : فأكثر آدابهم : في رياضة النفوس ، وتأديب الجوارح ، وحفظ الحدود ، وترك الشهوات .

وأما أهل الخصوصية : فأكبر آدابهم : في طهارة القلب ، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر ، وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب .

وقال ابن عطاء : الأدب : الوقوف مع المستَحْسنات.فقيل له : وما معناه ؟ فقال : أن تعامِله سبحانه بالأدب سِرًّا وعَلَنًا . ثم أنشد :

إذا نطقتْ جاءتْ بكلِّ ملاحَةٍ وإنْ سكتَتْ جاءتْ بكلِّ مليحِ

وقال سهل : من قهَر نفْسَه بالأدب ، فهو يعبد الله بالإخلاص .

وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر الناس القول في « الأدب » ، ونحن نقول : إنه معرفة النفس ورُعُوناتها ، وتجنُّب تلك الرعونات .

وقال بعضهم : الانبساط بالقوْل مع الحقِّ ترْكٌ للأدب .

وقال أبو عثمان : إذا صحّتِ المحبَّة ، تأكّدت على المحبِّ ملازمة الأدب .

الأنبياءُ أكملُ الناسِ أدبًا مع الله :

قال ابن القيِّم : وتأمَّلْ أحوالَ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله وخطابهم وسؤالهم كيفَ ؛ تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به .

أَدبُ آدمَ عليه السلام :

قال آدم عليه السلام : ﴿ **ربَّنا ظلمْنَا أنفُسنا وإنْ لم تغفرْ لنا وترحمْنا لَنكونَنَّ من الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٢٣]. ولم يقلْ : ربِّ قدرتَ عليَّ ، وقضيْتَ علي .

أدبُ الخليلِ عليه السلام :

قال الخليل عليه السلام : ﴿ **الذي خلَقَني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويَسقين وإذا مرضتُ فهو يشفين** ﴾ [الشعراء : ٧٨ - ٨٠] . ولم يقلْ: «وإذا أمرضني » ؛ حفظًا للأدب مع الله .

أَدب أيُّوب عليه السلام :

قال أيُّوب عليه السلام : ﴿ **مسَّني الضُّرُّ وأنتَ أرحم الراحمين** ﴾ [الأنبياء : ٨٣] . ولم يقلْ : « فعافني واشفني » .

أَدبُ يُوسُف عليه السلام :

قال يوسف عليه السلام لأبيه وإخوته : ﴿ **هذا تأويلُ رؤيايَ مِن قبلُ قد جعَلَها ربّي حقًّا وقد أحسن بي إذْ أخرجني من السجن** ﴾ [يوسف: ١٠٠]. ولم يقلْ : « أخْرجني من الجُبِّ » ؛ حفظًا للأدب مع إخوته ، وتفتّيًا عليهم ألّا يُخجِلَهم بما جرىٰ في الجُبِّ .

وقال : ﴿ **وجاء بكم من البدو** ﴾ . ولم يقلْ : « رفع عنكم جهْد الجوع والحاجة » ؛ أدبًا معهم . وأضاف ما جرىٰ إلى السبب ولم يُضفه إلى المباشِر ، الذي هو أقرب إليه منهم ؛ فقال : ﴿ **من بعد أن نزَغ الشيطان بيني وبين إخوتي** ﴾ . فأعطى الفُتُوَّةَ والكرَم والأدبَ حقَّه .

ولهذا لم يكن كمال هذا الخُلُق إلّا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

أدبُ الخَضِـرِ عليه السـلام :

قال الخضر في السفينة : ﴿ **فأردتُ أن أَعيبها** ﴾ [الكهف : ٧٩] . ولم يقلْ : « فأراد ربُّك أن يعيبها » . وقال في الغلاميْن : ﴿ **فأراد ربُّك أن يبلُغا أشدَّهما** ﴾ [الكهف : ٨٢] .

أدب موسىٰ عليه السـلام :

قال موسى عليه السلام : ﴿ **ربِّ إني لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقير** ﴾ [القصص : ٢٤] . ولم يقل : « أطعمني » .

أدب عيسىٰ عليه السـلام :

قال المسيح عليه السلام : ﴿ **إنْ كنتُ قلْتُه فقد علمتَه** ﴾ [المائدة : ١١٦] . ولم يقل : « لم أقله » ؛ وفرْقٌ بيْن الجوابيْن في حقيقة الأدب . ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسرِّه ؛ فقال : ﴿ **تعلمُ ما في نفسي** ﴾ . ثم برَّأ نفسه عن علْمه بغيْب ربِّه وما يختصُّ به سبحانه ، فقال : ﴿ **ولا أعلم ما في نفسك** ﴾. ثم أثنى على ربِّه ووصفه بتفرُّده بعلم الغيوب كلها ؛ فقال : ﴿ **إنك أنت علَّام الغيوب** ﴾ . ثم نفىٰ أن يكون قال لهم غير ما أمَره ربُّه به – وهو محْض التوحيد – فقال : ﴿ **ما قلتُ لهم إلّا ما أمرتني به أنِ اعبدوا اللهَ ربِّي وربّكم** ﴾ . ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم ، وأنه بعدَ وفاته لا اطلاع له عليهم ، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم ، فقال : ﴿ **وكنتُ عليهم شهيدًا ما دمتُ فيهم فلمَّا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم** ﴾ .

ثم وصفه بأن شهادته سبحانه وتعالى فوق كل شهادة وأعمُّ ، فقال : ﴿ **وأنت على كل شيء شهيد** ﴾ . ثم قال : ﴿ **إنْ تعذِّبْهم فإنهم عبادك** ﴾ . وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام ، أي : شأنُ السيد رحمةُ عبيده

والإحسان إليهم ، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدًا لغيرك ، فإذا عذَّبتَهم – مع كونهم عبيدك – فلولا أنهم عبيدُ سوءٍ من أبخس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له ؛ لم تعذبهم ؛ لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته فلماذا يعذِّب أرحم الراحمين وأجود الأجودين وأعظمُ المحسنين إحسانًا : عبيدَه ؟! لولا فَرْط عُتُوّهم وإباؤهم عن طاعته وكمال استحقاقهم للعذاب .

وقد تقدَّم قوله : ﴿ **إنك أنت علَّام الغيوب** ﴾ أي : هم عبادك وأنت أعلم بسرِّهم وعلانيتهم ؛ فإذا عذَّبتهم عذَّبتَهم على علْمٍ منك بما تعذِّبهم عليه ، فهم عبادك وأنت أعلم بما جَنَوْه واكتسبوه فليس في هذا استعطاف لهم كما يظنُّه الجُهَّال . ولا تفويض إلى محْض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة ، كما تظنُّه القدرية ، وإنما هو إقرار واعتراف ، وثناءٌ عليه سبحانه بحكمته وعدْله ، وكمال علمه بحالهم واستحقاقهم للعذاب . ثم قال : ﴿ **وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ولم يقل : « غفور رحيم » . وهذا من أبلغ الأدب مع الله سبحانه وتعالى ؛ فإنه قاله في وقتِ غَضَبِ الربِّ عليهم والأمر بهم إلى النار ، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة ، بل مقام براءة منهم ؛ فلو قال : « فإنك أنت الغفور الرحيم » ؛ لأُشْعَرَ باستعطافه ربَّه على أعدائه الذين قد اشتدَّ غضبه عليهم . فالمقام مقام موافقة للربِّ في غضبه على مَن غضِب الربُّ عليهم ، فعدل عن ذكر الصفتين اللَّتين يسأل بهما عَطْفه ومغفرته ورحمته إلى ذكْر العزَّة والحكمة ، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم .

والمعنى : إن غفرتَ لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ، ليست عن عجْز عن الانتقام منهم ، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم ؛ وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجْزه عن الانتقام منه ، ولجهله بمقدار إساءته إليه ، والكمال هو مغفرة القادر العالم ، وهو العزيز الحكيم . وكان ذكْر هاتين الصفتين في

هذا المقام عيْنَ الأدب في الخطاب](١) .

سيِّد البَشَرِ ﷺ أكمـلُ الأنبيـاء أدبًا :

قال تعالى في وصف أدبه ﷺ : ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى** ﴾ أفق وضيء طليق مرفرف ، عاش فيه قلب رسولنا ﷺ وبصرُه .. لحظات خُصَّ بها القلب المصفَّى ، وأدب من بصر رسول الله ﷺ لم يتجاوز رتبته وكلّه شوْق ، فأعطاه الله ما لم يعط أحدًا غيره .

قال ابن القيم : « إن هذا وصْف لأدبه ﷺ في ذلك المقام ؛ إذْ لم يلتفتْ جانبًا ، ولا تجاوز ما رآه ، وهذا كمال الأدب . والإخلال به أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله ، أو يتطلَّع أمام المنظور ، فالالتفات زيْغ ، والتطلُّع إلى ما أمام المنظور : طغيان ومجاوَزَة ؛ فكمالُ إقبال الناظر على المنظور : أن لا يصرف بصرَه عنه يمنة ولا يسرةً ، ولا يتجاوزه .

وهذا معنى ما حصَّلْته عن شيْخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه .

وفي هذه الآية أسرار عجيبة ، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البَشَر ﷺ ؛ تواطأ هناك بصرُه وبصيرته ، وتوافَقَا وتصادقَا فيما شاهده بصرُه ، فالبصيرة مواطئة له ، وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حقٌّ مشهود بالبصر ، فتواطأ في حقِّه مشهد البصر والبصيرة .

ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ما كذب الفؤادُ ما رأى أفتمارونه على ما يرىٰ** ﴾ [النجم : ١١ - ١٢] أي ما كذب الفؤادُ ما رآه ببصره .

ولهذا قرأها أبو جعفر : « ما كذّب الفؤاد ما رأى » . بتشديد الذال ؛ أي : لم يكذِّب الفؤادُ البصر ، بل صدقَه وواطأه ؛ لصحة الفؤاد والبصر ، أو لاستقامة البصيرة والبصر ، وكوْن المرئي المشاهَد بالبصر والبصيرة حقًّا .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٧٦ - ٣٨١ . بتصرُّف .

وقرأ الجمهور ﴿ **ما كذَب الفؤاد** ﴾ بالتخفيف ، وهو متعدٍّ وما رأى مفعوله ؛ أي ما كذّب قلبُه ما رأته عيناه ؛ بل واطأه ووافقه ، فلمواطأة قلبه لقالَبه ، وظاهره لباطنه ، وبصره لبصيرته ؛ لم يكذب الفؤادُ البصرَ ، ولم يتجاوز البصر حدَّه فيطغىٰ ، ولم يَمِلْ عن المَرْئي فيزيغ ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئي ، ما جاوزه ولا مال عنه ، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله والإعراض عمّا سواه ؛ فإنه أقبل على الله بِكُلِّيَّتِـهِ .

وللقلب زيْغ وطغيان ، كما للبصر زيْغ وطُغيان ، وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره ، فلم يزِغْ قلبه الْتفاتًا عن الله إلى غيره ، ولم يطغَ بمجاوزته ، وهذا غاية الكمال والأدب مع الله ، الذي لا يلحقه فيه سواه.فإن عادة النفوس إذا أُقيمتْ في مقام عالٍ رفيع : أن تتطلَّع إلى ما هو أعلى منه وفوقه ؛ ألا ترى أن موسىٰ ﷺ لمّا أُقيم في مقام التكليم والمناجاة طلبت نفسه الرؤية ؟! ونبينا ﷺ لمّا أُقيم في ذلك المقام ، وفّاه حقَّه ، فلم يلتفتْ بصرُه ولا قلبُه إلى غير ما أُقيم فيه ألبتة ؟! ولأجل هذا ما عاقَه عائق ، ولا وقف به مراد ، ولم تقفْ به دون كمال العبودية هِمَّة. ولهذا كان مركوبه في مَسراه يسبق خطوه الطرْف، فيضع قدمه عند منتهى طرْفه ، مُشـاكِلًا لحال راكبه وبُعْدِ شأوه ، الذي سبق العالم أجمع في سيْره ، فكان قدمُ البُراقِ لا يختلف عن موضع نظَرِه ، كما كان قدمه ﷺ لا يتأخَّر عن محلّ معرفته .

فلم يزلْ ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه ، وتكميلِ مراتب عبوديته له ، حتى خرَق حُجُب السموات ، وجاوز السبْعَ الطباق ، وجاوز سِدْرة المنتهى ، ووصل إلى محلٍّ من القرْب سبَق به الأَوَّلين والآخرين ، فانصبّتْ إليه هناك أقسامُ القرْب انصبابًا ، وانقشعت عنه سحائب الحجُبِ - ظاهرًا وباطنًا - حجابًا حجابًا ، وأُقيم مقامًا غبطَهُ به الأنبياءُ والمرسلون . فإذا كان في المعاد ، أقيم مقامًا من القرْب ثانيًا ، يغبطه به الأولون والآخرون . واستقام

هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله ، ما زاغ البصر عنه وما طغى ، فأقامه في هذا العالم على أقوم صراطٍ من الحقّ والهدى ، وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم ، فقال تعالى : ﴿ **يسٓ والقرآن الحكيم إنك لمن المرسَلِين على صراط مستقيم** ﴾ ، فإذا كان يوم المعاد ، أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته ،حتى يجوزوه إلى جنات النعيم ، وذلك فضْل الله يؤتيه مَنْ يشاء والله ذو الفضل العظيم »[1].

وكلّ الآداب تُتَلَقَّى من رسول الله ﷺ ؛ فإنه عليه السلام مَجْمعُ الآداب ظاهرًا وباطنًا .

قال ابن القيم : « الأدب مع الله : حُسْن الصحبة معه ، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضىٰ التعظيم والإجلال والحياء ، كحال مجالس الملوك ومصاحبهم »[2] .

أدب الجريري :

قال الجريري : منذ عشرين سنة ما مددتُ رجلي في الخلوة ؛ فإن حُسْن الأدب مع الله أحسن وأولى .

عائشة المكِّيَّة تعظ أبا عُبيد القاسم بن سلام ، وتُوصيه بالأدب :

قال أبو عُبيد القاسم بن سلام : دخلتُ مكَّة ، فكنتُ ربما أقعد بحذاء الكعبة ، وربما كنتُ أستلقي وأمدُّ رجْلي ، فجاءتني عائشة المكِّيَّة ، فقالت لي : «يا أبا عُبَيد، يُقال : إنك من أهل العلم ؛ اقبلْ مني كلمة: لا تجالسْهُ إلا بأدب، وإلّا فيمحىٰ اسمُك من ديوان القرْب . قال أبو عبيد : وكانت من العارفات »[3].

---

(١) مدارج السالكين ٣٨٢/٢ - ٣٨٤ .
(٢) مدارج السالكين ٣٧٧/٢ .
(٣) عوارف المعارف ص١٩٨ .

أدب السري السقطي :

« قال سريّ : صلَّيتُ وِرْدي ليلة من الليالي ومددتُ رِجْلي في المحراب ، فنودِيتُ : يا سري ، هكذا تجالس الملوك ؟ فضممتُ رجلي ثم قلتُ : وعِزَّتك ، لا مددتُ رُجلي أبدًا . قال الجنيد : فبقي سِتين سنة ما مدَّ رجلَه ليلًا ولا نهارًا .

وسُئِل السري رحمه الله عن مسألةٍ في الصبْر فجعل يتكلَّم فيها ، فدبَّ على رجله عقْرب ، فجعلتْ تضربه بإبرتها ، فقيل له : ألا تدفعها عن نفسك ؟! قال : أستحي من الله أن أتكلَّم في حالٍ ثم أخالف ما أعلم فيه » .

أدب مؤمني الجِنِّ :

قال مؤمنو الجنِّ : ﴿ **وأنا لا ندري أَشَرٌّ أُريد بمن في الأرض** ﴾ [الجن : ١٠] . ولم يقولوا : « أراده بهم ربهم » . ثم قالوا : ﴿ **أم أراد بهم ربُّهم رَشَدًا** ﴾[(١)] .

ومن الأدب مع الله : أمْرُ النبي ﷺ الرجلَ أن يستُر عورته وإن كان خاليًا لا يراه أحد ؛ أدبًا مع الله ؛ على حسب القرْب منه وتعظيمه وإجلاله ، وشدَّة الحياء منه ومعرفة وقاره .

قال بعضهم : الْزَم الأدب ظاهرًا وباطنًا ؛ فما أساء أحدٌ الأدب في الظاهر إلَّا عُوقب ظاهرًا ، وما أساء أحد الأدب باطنًا إلَّا عُوقب باطنًا .

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : مَن تهاون بالأدب ، عُوقب بحرمان السنن ، ومَن تهاون بالسنن عُوقب بحرمان الفرائض ، ومَن تهاون بالفرائض عُوقب بحرمان المعرفة .

وقيل : الأدب في العمل : علامة قبول العمل .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٨٠ .

قال ابن القيم : « وحقيقة الأدب » : استعمالُ الخلُق الجميل ، ولهذا كان الأدب : استخراج ما في الطبيعة من الكمال ، من القوة إلى الفعل .

ولقد خصّ الله بالفلاح مَن زكّى نفسه فنمّاها وعلّاها ، ورفعها بآدابه التي أدَّب بها رسله وأنبياءه وأولياءه .

« الأدب » هـو الدِّين كُلُّـه :

قال ابن القيم : « والأدب هو الدين كله ؛ فإنَّ ستْر العوْرة من الأدب ، والوضوء وغسْل الجَنَابة من الأدب ، والتطهُّر من الخبَث من الأدب ، حتى يقف بين يدي الله طاهرًا ، ولهذا كانوا يستحبُّون أن يتجمّل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه ، وكان لبعض السلف حُلَّة بمبلغٍ عظيم من المال ، وكان يَلبسها وقتَ الصلاة ويقول : ربي أحقُّ مَن تجمَّلتُ له في صلاتي .

ومـن الأدب :

« نهْيُ النبي ﷺ المصلي أن يرفع بصَرَه إلى السماء » . فسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه - يقول : هذا من كمال أدب الصلاة ؛ أن يقف العبد بين يدي ربِّه مطرقًا ، خافضًا طرْفه إلى الأرض، ولا يرفع بصرَه إلى فوق .

قال : والجهمية لمّا لم يفقهوا هذا الأدب ولا عرفوه ؛ ظنُّوا أن هذا دليل أنَّ الله ليس فوق سماواته على عرشه ، كما أخبر به عن نفسه واتفقت عليه رُسُله وجميعُ أهل السُّنَّة . قال : وهذا من جهلهم ، بل هذا دليل لمن عقَل عن الرسول ﷺ ، على نقيض قوْلهم ؛ إذ من الأدب مع الملوك : أنَّ الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض ، ولا يرفع بصرَه إليهم ، فما الظنُّ بملك الملوك سبحانه ؟! .

ومـن الأدب مـع الله :

أن لا يستقبل بيْته ولا يستدْبره عند قضاء الحاجة ؛ كما ثبت عن النبي ﷺ

في حديث أبي أيُّوب وسلمان وأبي هريرة وغيرهم ، رضي الله عنهم . والصحيحُ : أن هذا الأدب يعمّ الفضاء والبُنيان .

ومن الأدب مع الله : في الوقوف بين يديْه في الصلاة :

وضْع اليمنى على اليسرىٰ حالَ قيام القراءة ؛ ففي الموطَّأ عن سهل بن سعد : « أنه من السنة » و « كان الناس يُؤمَرون به » .

ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء ، فعظيمُ العظماء أحقُّ به .

ومنها : السكون في الصلاة ؛ وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ **والذين هُمْ على صلاتهم دائمون** ﴾ [المعارج : ٢٣] . فالدوام هو سكون الأطراف والطمأنينة .

وأدبه في استماع القراءة : أن يُلقي السمْعَ وهو شهيد .

وأدبه في الركوع : أن يستوي ، ويعظِّم الله تعالى ؛ حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه ، ويتضاءل ويتصاغر في نفسه حتى يكون أقلَّ من الهباء .

والمقصود : أن الأدب مع الله تبارك وتعالى : هو القيام بدينه ، والتأدُّب بآدابه ظاهرًا وباطنًا .

ولا يستقيم لأحدٍ قطُّ الأدبُ مع الله ، إلَّا بثلاثة أشياء :

معرفته بأسمائه وصفاته .

ومعرفته بدينه وشرعه ، وما يحبُّ وما يكره .

ونفس مستعدَّة قابلة ليِّنة ، متهيئة لقبول الحقِّ عِلْمًا وعَمَلًا وحالًا والله المستعان »[1].

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٨٤ .

الأدب معَ الرسـول ﷺ :

«وأمّا الأدب مع الرسول ﷺ : فالقرآن مملوء به . فرأس الأدب معه : كمال التسليم له ، والانقياد لأمره ، وتلقِّي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن يحمِّله معارضة خيال باطل يسمِّيه معقولًا ، أو يحمِّله شبهةً أو شكًّا ، أو يقدِّم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم . فيوحِّده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان . كما وحّد المرسِل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذلّ ، والإنابة والتوكُّل ؛ فلا يحاكم إلى غير الرسول ﷺ ، ولا يرضىٰ بحكْم غيره ، ولا يقف تنفيذَ أمره ، وتصديق خبره ؛ على عرْضِه على قوْل شيخه وإمامه ، وذوي مذهبه وطائفته ، ومَنْ يعظّمه ؛ فإن أذنوا له نفَّذَه وقبِل خبرَه ، وإذن فإنْ طلَبَ السلامة أعرَضَ عن أمْره وخبره وفوّضه إليهم ، وإلّا حرَّفه عن مواضعه ، وسمَّى تحريفَه تأويلًا وحمْلًا ، فقال : نؤوِّله ونحمله .

فَلَأَنْ يلقىٰ العبدُ ربَّه بكلِّ ذنب على الإطلاق - ما خلا الشرك بالله - خيرٌ له من أن يلقاه بهذه الحال .

فكمـال التسليم والانقياد له هـو أدبُ الخواصِّ معـه ﷺ ، لا مخالفـة أمره والشرك به ، ورفع الأصوات ، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم ، وعزل كلامه عن اليقين ، وأن يُستفاد منه معرفة الله، أو يُتلقى منه أحكامه . بل المعوّل في باب معرفة الله : على العقول المنهوكة المتحيِّرة المتناقضة ، وفي الأحكام : على تقليد الرجال وآرائها . والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبرُّكًا ، لا أن نتلقَّى منهما أصول الدين ولا فروعه . ومَن طلَب ذلك ورامه ، عاديناه وسعَيْنا في قطْع دابره ، واستئصال شأفته ، ﴿ **بل قلوبهم في غمْرةٍ من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذابِ إذا هم يجأرون لا تجأروا اليومَ إنكم منَّا لا تُنصرون قد كانت آياتي تُتلىٰ عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرًا تهجرون أفلم يدبَّروا القولَ**

أم جاءهم ما لم يأتِ آباءهم الأولين أم لم يعرفوا رسولَهم فهم له منكرون أم يقولون به جِنَّة بل جاءهم بالحقِّ وأكثرهم للحقِّ كارهون ولو اتبع الحقُّ أهواءَهم لَفسدت السمواتُ والأرض ومَن فيهنَّ بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكْرهم معرضون أم تسألهم خرْجًا فخراج ربِّك خير وهو خير الرازقين وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لَناكبون ﴾ [المؤمنون : ٦٣ - ٧٤] . والناصح لنفسه ، العامل على نجاتها : يتدبّر هذه الآيات حق تدبُّرها ، ويتأمَّلها حقَّ تأمُّلها ، ويُنزلها على الواقع فيرىٰ العجَب ، ولا يظنُّها اختصَّت بقومٍ كانوا فبانوا ، « فالحديث لك ، واسمعي يا جارة » . والله المستعان .

ومِنَ الأدب مع الرسول ﷺ :

أن لا يتقدَّم بين يديه بأمر ولا نهي ، ولا إذن ولا تصرُّف ، حتى يأمر هو وينهىٰ ويأذن ؛ كما قال تعالى : ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسولهِ**﴾ [الحجرات : ١] وهذا باقٍ إلى يوم القيامة ولم يُنسخ ، فالتقدُّم بين يدَيْ سنته بعد وفاته : كالتقدُّم بين يديْه في حياته ، ولا فرْق بينهما عند ذي عقل سليم .

ومن الأدب معه : أن لا تُرفع الأصوات فوق صوته ؛ فإنه سببٌ لحُبوط الأعمال ، فما الظنُّ برفْع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به ؟! أترى ذلك مُوجِبًا لقبول الأعمال ، ورفع الصوت فوق صوته مُوجبًا لحبوطها ؟!

ومن الأدب معه : أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره ؛ قال تعالى : ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا** ... ﴾ الآية [النور : ٦٣] . وفيه قولان للمفسِّرين :

أحدهما : أنكم لا تدعونه باسمه كما يدعو بعضكم بعضًا ، بل قولوا :

يا رسول الله . يا نبيَّ الله . فعلىٰ هذا : المصدر مضاف إلى المفعول : أي دعاءَكم الرسول .

الثاني : أنَّ المعنى:لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا ؛ إن شاء أجاب وإن شاء ترَك ، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بدٌّ من إجابته ، و لم يسعْكم التخلُّف عنها ألبتة . فعلى هذا : المصدر مضاف إلى الفاعل ، أي دعاؤه إيَّاكم .

ومن الأدب معه : أنهم إذا كانوا معه على أمْرٍ جامع – من خطبة ، أو جهاد ، أو رباط – لم يذهب أحدٌ منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنه ؛ كما قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتى يستأذنوه** ﴾ [النور : ٦٢] فإذا كان هذا مذهبًا مقيَّدًا بحاجة عارضة ، لم يوسع لهم فيه إلّا بإذنه ؛ فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين ؛ أصوله وفروعه ، دقيقه وجليله ؟! هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه ؟ ﴿ **فاسْألوا أهلَ الذِّكْر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ [النحل : ٤٣] .

ومن الأدب معه : أن لا يُستشكل قوْلُه ، بل تُستشكل الآراء لقوله ، ولا يُعارض نصُّه بقياس ، بل تُهدر الأقيسة وتُلقىٰ لنصوصه ، ولا يُحرَّف كلامه عن حقيقته لخيال يسمِّيه أصحابه معقولًا ؛ نعم هو مجهول وعن الصواب معزول ، ولا يُوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحدٍ ، فكلُّ هذا من قلَّة الأدب معه ﷺ ، وهو عيْن الجرأة »[1] .

أدبُ الصِّدِّيق رضي الله عنه :

«يتجلَّى في كلِّ موقف للصِّديق .. وأبرز ذلك: موقفه مع النبي ﷺ، لمّا مرض النبي ﷺ وأَمَّ أبو بكر الناسَ في الصلاة ، فلمَّا أحسَّ بقدوم النبي ﷺ ما استطاع أن يتقدَّم بين يديْه أدبًا منه وقال : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة

(١) مدارج السالكين ٣٨٧/٢ – ٣٩٠ .

أن يتقدَّم بين يدي رسول الله ﷺ .

فانظر إلى أدب الصِّدِّيق كيف أورثه مقامه ، والإمامة بعدَه فكان ذلك التأخُّر إلى خلفه - وقد أومأ إليه أنِ اثبتْ في مكانك - جَمْزًا ، وسعْيًا إلى قُدَّام .

فبكلِّ خطوة إلى وراء مراحل إلى قدّام تنقطع فيها أعناق المَطيِّ . والله أعلم »[١] .

أدب عمـر رضـي الله عنه :

« ورَد أنَّ عمر رضي الله عنه عمد إلى ميزاب للعباس على ممر الناس فقلَعَه ، فقال : أشهد أن رسول الله ﷺ هو الذي وضعه في مكانه . فأقسم عمر : لتصعدن علىٰ ظهري ولتضعنَّه موضعه »[٢] .

أدَبُ أبي أيُّـوب الأنصـاري :

عن أبي رهم ؛ أنَّ أبا أيوب حدَّثه أن رسول الله ﷺ نزل في بيتنا الأسفل ، وكنتُ في الغرفة ، فأهريق ماءٌ في الغرفة ، فقمتُ أنا وأمُّ أيُّوب بقطيفةٍ لنا نتتبَّعُ الماء ، ونزلتُ فقلتُ : يا رسول الله ، لا ينبغي أن نكون فوقك ، انتقل إلى الغرفة . فأمَرَ بمتاعه فنُقل ومتاعه قليل . قلت : يا رسول الله ، كنتَ ترسل بالطعام فأنظر فإذا رأيتُ أثر أصابعك ، وضعتُ فيه يدي[٣] .

أدبُ أمين الأُمَّة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه :

قال الصِّديق : « كنتُ أول من فاءَ يوم أحد ، فرأيتُ رجلًا يقاتل في

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩١ - ٣٩٢ .

(٢) السير ٢/٥٠١ ، وتهذيب ابن عساكر ٢/٣٩٨ .

(٣) إسناده صحيح : رواه أحمد والطبراني والحاكم ، والذهبي في السير ، وأخرجه بنحوه مسلم .

سبيل الله دونه ، وأراه قال : حميَّة . قال : فقلتُ : كنْ طلحة حيث فاتني ما فاتني . فقلتُ : يكون رجلًا من قومي أحبّ إليَّ . وبيني وبين المشركين رجلٌ لا أعرفه ، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطِف المشي خطْفًا لا أخطفه ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وقد كُسِرَتْ رباعيَّته ، وشُجَّ في وجهه ، وقد دخل في وجْنَته حلقتان من حلق المِغْفَر . قال رسول الله ﷺ : « عليكما صاحبَكما » يريد طلحة . وقد نزف ، فلم نلتفت إلى قوله . قال : وذهبتُ لأنزِعَ ذلك من وجهه ، فقال : أُقسم عليك بحقِّي لمَا تركتَني . فتركتُه ، فكره تناولهما بيده ، فيؤذي رسول الله ﷺ ، فأزمَّ عليها بفيهِ ، فاستخرج إحدى الحلقتيْن ، ووقعت ثنْيته مع الحلقة ، وذهبتُ لأصنع ما صنع فقال : أقسمتُ عليك بحقِّي لما تركتَني . قال : ففعل مثلما فعَل في المرة الأولى ، فوقعتْ ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة رضي الله عنه من أحسن الناس هتما »[1] .

فانظر - رحمك الله - كيف بلغ الأدب بأبي عُبيدة ؛ لا ينزع حلقتي المغفر بيده ؛ لئلَّا يؤذي رسول الله ﷺ ، بل يزمُّهما بفمه حتى سقطت ثنيتاه .

أدب طلحة الخير : طلحة بن عبيد الله :

يظهر ذلك جليًّا أثناء انسحاب رسول الله ﷺ من أُحد ؛ قال ابن إسحاق : نهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبل ليعلوها ، وكان قد بدَّن[2] وظاهَر بين دِرْعَين ، فلما ذهب لِينهض لم يستطع ، فجلس تحته طلحة ابن عبيد الله حتى استوى عليها .

---

(١) السير ١/٨ ، والبداية والنهاية ٣١/٥ .
(٢) ضعُف وأسنّ .

لقد أصاب العَرَجُ إحدىٰ رِجْلَي طلحة رضي الله عنه ، أثناء دفاعه عن النبي ﷺ ، ولمّا حمل طلحة النبي ﷺ تكلّف استقامة المشي أدبًا مع رسول الله ﷺ ، لئلّا يشقّ على النبي ﷺ ، فاستوتْ رجلُه العرجاء لهذا التكلُّف ، فشُفي من العَرَج .

أدب صـدِّيق الأنصـار سـعد بن معاذ رضي الله عنه :

لمّا وصل سيد الأوس سعد بن معاذ إلى مقرِّ قيادة النبي ﷺ في بني قريظة ؛ قال له النبي ﷺ : « احكمْ فيهم يا سعد » . فقال : إن رسول الله ﷺ أحقُّ بالحكم . فقال النبي ﷺ : « قد أمَرَك الله أن تحكم فيهم » .. غير أن سعدًا – وقد علم حرص قومه الأوْس على التساهُل في الحكم على حلفائهم اليهود – أحبَّ أن يستوثق من الجميع ، ويأخذ عليهم العهد – الأوس وبني قريظة – بأنَّ حكمه إذا صدر يكون غير قابل للنقْض أو النقاش . ووقف سعد ابن معاذ في المعسكر النبوي ، ووجّه حديثه إلى قومه الأوس خاصَّة ، وإلى مَنْ في المعسـكر عامَّة قائلًا : عليكم بذلك – عهد الله وميثاقه – أن الحكم كما حكمتُ ؟ قالوا : نعم . ثم اتجه إلى النبي ﷺ وأشار إلى الناحية التي هو فيها ، ثم قال وهو مُعْرِض عن رسول الله ﷺ إجلالًا وإكبارًا : وعلى مَنْ هاهنا ؟ وأشـار إلى الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسـلام : « نعـم »[1]. ثم أشار إلى بني قريظة المحجوزين جانبًا في المعسكر ؛ ليسـتوثق منهم قائلًا : أترضون بحكمي ؟ قالوا : نعم . فحكم أن تُقتل المقاتِلة ، وأن تُسبىٰ النساء والذُّرِّيَّة ، وأن تقسَّم أموالهم . ولمَّا نطق سعد بن معاذ بالحكم ، قال له النبي ﷺ : « حكمتَ فيهم بحكم اللهِ مِن فوق سبع سماوات » .

فانظر إلى أدب سعد أثناء الحكم ، وإشارته إلى خيمة رسول الله ﷺ

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٤٠) .

وهو معرض عنها ؛ إجلالًا لرسول الله ﷺ .

أدب خطيب الأنصار ثابت بن قيْس رضي الله عنه :

انظر إلى أدب خطيب الأنصار ؛ ثابت بن قيس بن شِماس رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ ، لمّا نزل قوْل الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ...** ﴾ الآية [الحجرات : ٢] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمَه . فأتاه فوجده في بيته منكّسًا رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شرٌّ . كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله ، فهو من أهل النار . فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ ، فأخبره أنه قال كذا وكذا . قال موسى بن أنس : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارةٍ عظيمةٍ فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لستَ من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة »[1].

وروى الإمام أحمد ، عن أنس رضي الله عنه : لمَّا نزلت هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ...** ﴾ الآية [الحجرات : ٢] . وكان ثابت بن قيس الشماس رفيعَ الصوت ، فقال : أنا الذي كنتُ أرفع صوتي على رسول الله ﷺ ، حبطَ عملي ، أنا من أهل النار . وجلس في أهله حزينًا ، ففقده رسول الله ﷺ ، فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له : فقدَك رسول الله ﷺ ؛ ما لَكَ ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول ؛ حبط عملي ، أنا من أهل النار . فأتَوا النبي ﷺ ، فأخبروه بما قال ، فقال : « لا ، هو من أهل الجنة » .

قال أنس : فكنا نراه يمشي بين ظهرانينا ، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ،

---

(١) رواه البخاري .

فلما كان يوم اليمامة ، كان فينا بعضُ الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس بن شماس ، وقد تحنَّط ولبس كَفَنَه ، فقال : بئسما تعوّدون أقرانكم !! فقاتلهم حتى قُتل .

وروى البخاري عن ابن أبي مُليكة قال : كاد الخيِّران أن يهلِكا ؛ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، رفعَا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجلٍ آخر - قال نافع بن عمر : لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلّا خلافي . قال : ما أردتُ [خلافك] . فارتفعتْ أصواتهما في ذلك، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقوْل كجهْر بعضكم لبعض** ... ﴾ الآية . قال ابن الزبير : « فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية ، [حتى يستفهمه] . ولم يَذكرْ ذلك عن أبيه . يعني أبا بكر رضي الله عنه »(١).

ثم روى البخاري عن ابن أبي مُليكة : أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركْبٌ من بني تميم على النبي ﷺ ، فقال أبو بكر : أمِّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمِّر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردتَ إلى - أو إلّا - خلافي . فقال عمر : ما أردتُ خلافك . فتماريَا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزلت في ذلك : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ حتى انقضت الآية .

وعن أبي بكر الصديق قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ ، قلت : يا رسول الله ، والله لا أكلّمك إلّا كأخي السِّرار(٢).

---

(١) انفرد به البخاري دون مسلم .

(٢) قال ابن كثير : « رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده ، وحُصين بن عمر هذا =

الأدب معَ الخَلْق :

« أمَّا الأدب مع الخلْق : فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم ، فلكلِّ مرتبة أدب . والمراتب فيها أدَبٌ خاصٌّ :

فمع الوالدين : أدب خاصٌّ ، وللأب منهما أدب هو أخصُّ به .

ومع العالم : أدب آخر .

ومع السلطان : أدب يليق به .

وله مع الأقران : أدب يليق بهم .

ومع الأجانب : أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه .

ومع الضيف : أدب غير أدبه مع أهل بيته .

ولكل حال أدب : فللأكل آداب ، وللشرب آداب ، وللركوب والدخول ، والخروج والسفر ، والإقامة ، والنوم : آداب ، وللبول آداب ، وللكلام آداب ، وللسكوت والاستماع آداب[1] .

وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه ، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره ، فما استُجلب خير الدنيا والآخرة بمثْل الأدب ، ولا استُجلب حرْمانُها بمثل قِلَّة الأدب .. فانظر إلى الأدب مع الوالدين : كيف نجَّى صاحبه من حبْس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة !! والإخلال به مع الأم - تأويلًا وإقبالًا على الصلاة - كيف امتحن صاحبَه بهدْم صومعته ، وضرْب الناس له ، ورميه

= وإن كان ضعيفًا . لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمٰن بن عوف ، وأبي هريرة ، بنحو ذلك . والله أعلم » . اهـ . من تفسير ابن كثير ٣٤٦/٧ .

والسِّرار : المساررة ؛ أي كصاحب السرار ، أو : كمَثَل المساررة لخفْض صوته .

(١) لي تحت الطبع مجلّد بعنوان : « حسن الطلب في بيان الأدب » يسَّر اللهُ بمنِّه وفضْله إخراجَه قريبًا .

بالفاحشة !! وتأمَّلْ أحوال كلِّ شقيٍّ ومغترٍّ ومُدْبر : كيف تجد قلَّة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان !! »(١) .

عُلوُّ الهِـمَّة في الأدب مع الوالـديْن :

قال تعالى : ﴿ **وقضىٰ ربُّك ألّا تعبدوا إلا إياه وبالوالديْن إحسانًا إمَّا يبلغَنَّ عندك الكِبَر أحدهما أو كلاهما فلا تقلْ لهما أفٍّ ولا تنهرْهما وقلْ لهما قولًا كريمًا واخفض لهما جَناحَ الذلِّ من الرحمة وقل رَبِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيرًا** ﴾ [الإسراء : ٢٣ - ٢٤] .

قال سعيد بن المسيب : « ﴿ **وقل لهـما قولًا كريمًا** ﴾ : قول العبد المتذلِّل للسيد الفظِّ . ﴿ **واخفضْ لهما جَناح الذلِّ من الرحمة** ﴾ : تعبير يَشف ويلطُف ، ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان ، فهي الرحمة ترقُّ وتلطف ، حتى لَكَأنها الذُّلُّ الذي لا يرفع عينًا ، ولا يرفض أمرًا » .

نبيُّ الله إسـماعيل الأنمـوذج العالي لبرِّ الوالدين :

يقصُّ اللهُ علينا في القرآن الكريم موقف الذبيح مع أبيه خليل الرحمٰن إبراهيم عليهما السلام : ﴿ **فلمّا بلغ معه السعْيَ قال يا بُني إني أرىٰ في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترىٰ قال يا أبت افعلْ ما تُؤمر ستجدني إنْ شاء الله من الصابرين** ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

يا أبت .. يا أبت ، في مودَّة وقُربى ، وشبحُ السِّكِّين لا يُزعجه ولا يُفزعه ، ولا يُفقده رشدَه ، بل لا يفقده أدَبه ومودته !!

وحارثة بن النعـمان مَثَل سَـامِقٌ للبِرِّ :

عن عائشة أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : « دخلتُ

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٠ - ٣٩١ .

الجنة فسمعتُ قراءةً ، فقلتُ : مَنْ هذا ؟ فقيل : حارثة بن النعمان » ، فقال رسول الله ﷺ : « كذلكم البر . كذلكم البر » . وزاد عبد الرزاق في رواية : « وكان أبرَّ الناس بأُمِّه »[(١)] .

«وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ أبرَّ مَن كان في هذه الأُمّة بأُمِّهما : عثمان بن عفان ، وحارثة بن النعمان رضي الله عنهما ؛ أمَّا عثمان : فإنه قال : ما قدرتُ أتأمَّل وجْهَ أمي منذ أسلمتُ . وأمَّا حارثة : فكان يُطعمها بيده ، ولم يستفْهمها كلامًا قطُّ تأمُر به ، حتى يسأل مَنْ عندها بعد أن يخرج : ماذا قالتْ أمي ؟ »[(٢)] .

أبو هُرَيْرة لم يحجَّ حتى ماتت أُمُّه ؛ لصُحْبتها :

قال أبو هريرة : « إن أمي كانت مشركة ، وكنتُ أدعوها إلى الإسلام ، وكانت تأبى عليّ ، فدعوتُها يومًا فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره ، فأتيتُ رسول الله ﷺ وأنا أبكي ، فأخبرته ، وسألتُه أن يدعو لها ، فقال : « اللهمَّ اهْدِ أُمَّ أبي هريرة » . فخرجتُ أعدو أبشِّرها ، فأتيتُ فإذا الباب مجاف ، وسمعتُ خضخضة الماء ، وسَمِعَتْ حِسِّي ، فقالت : كما أنت . ثم فتحتْ ، وقد لبستْ دِرْعَها ، وعجلتْ عن خمارها ، فقالت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . قال : فرجعت إلى رسول الله ، أبكي من الفرَح كما بكيتُ من الحزْن ، فأخبرته وقلت : ادعُ الله أن يحبِّبني وأمِّي إلى عباده المؤمنين . فقال : « اللهمَّ حَبِّبْ عُبيْدَك هذا وأُمَّه إلى عبادك المؤمنين ، وحبِّبْهم

---

(١) إسناده صحيح : رواه أحمد ، والبغوي في شرح السنة ، وعبد الرزاق في المصنف ، والحاكم وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ في الإصابة ٦١٨/١ : إسناده صحيح .

(٢) التبصرة ١٨٧/١ - ١٨٨ .

إليهما »[١] .

«ويشتدُّ الألم به من الجوع مرَّة ، فيخرج من بيته إلى المسجد ، لا يخرجه إلَّا الجوع ، فيجد نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فيقولون : يا أبا هريرة ، ما أخرجك هذه الساعة ؟ فيقول : ما أخرجني إلّا الجوع . فيقول أبو هريرة : فقمنا ، فدخلنا على رسول الله ﷺ فقال : « ما جاء بكم هذه الساعة ؟ ». فقلنا : يا رسول الله جاء بنا الجوع . قال : فدعا رسول الله ﷺ بطبق فيه تمر ، فأعطى كل رجل منا تمرتيْن ، فقال : « كُلُوا هاتين التمرتين ، واشربوا عليهما من الماء ، فإنهما ستجزيانكم يومكم هذا » . قال أبو هريرة : فأكلتُ تمرةً ، وخبَّأتُ الأخرى ؛ فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة ، لم رفعتَ هذه التمرة ؟ » . فقلتُ : رفعتُها لأُمِّي . فقال : « كلْها ، فإنّا سنعطيك لها تمرتيْن » . فأكلتُها فأعطاني لها تمرتيْن »[٢] .

وعن أبي مُرَّة : « أن أبا هريرة كان يستخلفه مروان ، وكان يكون بـ « ذي الحُلَيْفة » ، فكانت أمُّه في بيت ، وهو في آخر . قال : فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها ، فقال : السلام عليك يا أُمَّتاه ورحمة الله وبركاته . فتقول : وعليك يا بُني ورحمة الله وبركاته . فيقول : رحِمَكِ الله كما ربَّيْتني صغيرًا . فتقول : رحمك اللهُ كما بَرَرْتَني كبيرًا ، ثم إذا أراد أن يدخل ، صنع مثله »[٣] .

«ولازَم أبو هريرة أُمَّه ، ولم يحجَّ حتى ماتت ؛ لصحبتها »[٤] .

---

(١) حسن : أخرجه أحمد ، ومسلم في فضائل الصحابة ، وحسَّنه الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/٥٩٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/٥٩٢ - ٥٩٣ ، وطبقات ابن سعد .

(٣) الأدب المفرد للبخاري ، وأحمد في مسنده .

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخه ٤٧/٥١٦ - ٥١٧ ، كذا عزاه د . محمد عجاج الخطيب في كتابه : أبو هريرة راوية الإسلام . ص١٢٠ .

أُوَيْس القرني : يشهدُ له النبي ﷺ ببرِّه لِأُمِّه وأدَبِه معها :

قال رسول الله ﷺ : « إن خير التابعين رجلٌ يقال له : أُويس ، وله والدة هو بها بَرٌّ ، لو أقسم على الله لأبرَّه ، وكان به بَيَاض ، فمُرُوه فليستغفر لكم »[(١)] .

وكان عمر رضي الله عنه إذا أتى أمدادُ اليمنِ ، يسألهم : فيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى على أُوَيس بن عامر . قال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم . قال : كان بك بَرَصٌ فبرأتَ منه ، إلّا موضع درهم ؟ قال : نعم . قال : ألك والدة ؟ قال : نعم . قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قَرَن ، كان به أثرُ بَرَص فبرأ منه إلّا موضع درهم ، له والدة هو بارٌّ بها ، لو أقسم على الله لأبرَّه ، فإن استطعتَ أن يستغفر لك فافعلْ » فاستغِفْر لي . فاستغفَرَ له ، فقال له عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة . قال : ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال : أكون في غبراءِ الناس أحبُّ إليَّ .

لقد منع أويس من القدوم على النبي ﷺ برُّه بأمه . فهل فوق هذا أدب وبِرٌّ ؟! يمنعه البر من شَرف الصُّحْبة مع رسول الله ﷺ .

أبو حنيفةَ النعمانُ مَثَلٌ يُحتذَى في الأَدب مع الأُمِّ :

« كان رحمه الله بارًّا بوالديْه ، وكان يدعو لهما ويستغفر لهما مع شيخه حمَّاد ، وكان يتصدّق كلَّ شهر بعشرين دينارًا عن والديه »[(٢)] .

« قال أبو يوسف : كان أبو حنيفة يحمل والدته على حماره إلى مجلس عمر بن ذرٍّ ؛ كراهةَ أن يردّ قوْلها .

---

(١) رواه مسلم عن عمر .

(٢) أبو حنيفة النعمان للشيخ : وهبي غاوجي الألباني ص١٠٢ .

وقال أبو حنيفة : ربما ذهبتُ بها إلى مجلسه ، وربما أمرتْني أن أذهبَ إليه وأسأله عن مسألة ، فآتيه وأذكرها له ، وأقول له : إنَّ أمي أمَرتْني أن أسألك عنها . فيقول : وأنت تسألني عن هذا ؟ فأقول : هي أمرتْني . فيقول : قل لي : كيف هو - يعني الجواب - حتى أخبرك . فأخبره بالجواب ، ثم يخبرني به ، فآتيها وأخبرها عنه بما قال . ونظير ذلك : أنها استفتتْ عن شيء ، فأفتيتُها فلم تقبله ، وقالت : لا أقبلُ إلا بقول زُرعة القاصّ- أي الواعظ- فجاء بها إليه ، وقال له : إن أمِّي تستفتيك في كذا ، فقال : أنت أعلم وأفقه ، فأفْتِها . قال : أفتيتُها بكذا . فقال زرعة : القوْل ما قال أبو حنيفة . فرضيتْ وانصرفتْ »[(١)].

وعن يحيى بن عبد الحميد قال : كان الإمام يخرج كلَّ يوم من السجن فيُضْرَب ليدخلَ القضاء ، فيأبى ، فلمَّا ضُرِب رأسُه وأثَّر ذلك في وجهه بكى ، فقيل له في ذلك ، فقال : إذا رأتْه أمِّي بكتْ واغتمَّتْ ، وما عليَّ شيء أشدُّ من غمِّ أمِّي .

« وعن يحيى الحماني ، عن أبيه قال : كان أبو حنيفة يُضرب على أن يليَ القضاء فيأبى ، ولقد سمعتُه يبكي وقال : أبكي غمًّا على والدتي »[(٢)] .

« وكان **حُجْر بن عدي بن الأدبر** يلتمس فراش أمِّه بيده ، **فيتَّهم** غلظ يده ، فينقلب عليه على ظهره ، فإذا أَمِن أن يكون عليه شيء أضْجَعَها .

وكان **ظبيان بن علي** مِن أبرِّ الناس بأُمِّه ، فباتتْ ليلة وفي صدرها عليه شيء ، فقام على رجلَيْه قائمًا يكرهُ أن يوقظها ، ويكره أن يقعد .

---

(١) من أخلاق العلماء للشيخ محمد سليمان ص٧٩ .

(٢) مناقب الإمام أبي حنيفة للذهبي ص١٥ ، ١٦ .

ابن عـون :

نادت أمُّ عبد الله بن عون عبدَ الله فأجابها ، فعلا صوته على صوتها فأعتق رقبتَيْن .

« قال بشر الحافي : الولد يقرب من أُمِّه بحيث يُسمِع أُمّه : أفضل مِنَ الذي يضرب بسيفه في سبيل الله ، والنظر إليها أفضل من كل شيء .

وقال محمد بن مُحيْريز : من مشىٰ بين يدي أبيه فقد عقّه ، إلّا أنْ يمشي فيُميط الأذى عن طريقه . ومَن دعا أباه باسمه أو بكُنْيته ، فقد عقَّه ، إلّا أن يقول يا أبت »[1] .

إني لها بَعيرُها المُذَلَّل :

« حدّث أبو بُردة بن أبي موسى الأشعري أن ابنَ عمر شهد رجلًا يمانيًّا يطوف بالبيت ، حمل أُمَّه وراء ظهرهِ يقول :

إنـي لهـا بعيـرُهـا المـذلَّـلْ إنْ أُذعِرتْ ركابُها لم أُذْعَرْ
اللهُ ربي ذو الجلالِ الأكبرْ
حملتُـها أكثـرَ مـمَّا حملـتْ فهل ترىٰ جازيْتُها يا ابنَ عمرْ

ثم قال : يا ابن عمر ، أتراني جزيتُها ؟ قال : لا ، ولا بزفرة واحدة »[2] .

صورة طيبة من الأدب والبرِّ :

عن ابن عمر رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « بينما ثلاثة نفر

---

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/١٨٨ .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وابن المبارك في البر والصلة ، والبيهقي في شعب الإيمان . والزَّفْرة : المرة من الزفير ، وهو تردُّد النفَس حتى تختلف الأضلاع ، وهذا يعرض للمرأة عند الحمل .

يتماشَوْن ، أخذهم المطر ، فمالوا إلى غارٍ في الجبل ، فانحطتْ على فمِ غارهم صخرةٌ من الجبل ، فأطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالًا عملتموها لله صالحة ، فادعوا الله بها لعلَّه يفرِّجها . فقال أحدهم : اللهمَّ إنه كان لي والدان شيخان كبيران ، ولي صِبْيَة صغار كنتُ أرعىٰ عليهم ، فإذا رجعتُ عليهم فحلبتُ ، بدأتُ بوالدي أسقيهما قبل ولدي ، وإنه قد نأى بي الشجر[1]، فما أتيتُ حتى أمسيتُ ، فوجدتُهما قد ناما ، فحلبتُ كما كنت أحلب ، فجئتُ بالحِلاب ، فقمتُ عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما ، وأكره أن أبدأ بالصِبية قبلهما ، والصبية يتضاغَوْن[2] عند قدمي ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ، فافـرُجْ لنا فرجة نرى منها السماء . ففرّج اللهُ لهم حتى يروْن السماء ... »[3] الحديث .

وأخــرى :

« كان الفضل بن يحيىٰ أبرَّ الناس بأبيه ، بلغ مِن برِّه إيّاه أنهما كانا في السجن ، وكان يحيىٰ لا يتوضأ إلا بماءٍ سُخن ، فمنعهما السجَّان من إدخال الحطب في ليلة باردة ، فلما نام يحيى ، قام الفضل إلى قمقمة وملأها ماءً ، ثم أدناه من المصباح ، ولم يزلْ قائمًا – وهو في يده – حتى أصبح »[4] .

كَهْمسُ الدَّعَّاءُ وأدبُه العالي :

« عن أبي عبد الرحمٰن الحنفي قال : رأى كهمس بن الحسن عقربًا في

---

(١) نأى بي الشجر : بَعُد المرعىٰ .

(٢) يتضاغَوْن : يُصوِّتون باكين .

(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن حبان .

(٤) بر الوالدين للطرطوشي ص٧٨ .

البيت ، فأراد أن يقتلها ، أو يأخذها ، فسبقتْه إلى جُحْرها ، فأدخل يده في الجُحْرِ يأخذها ، وجعلَتْ تضربه ، فقيل له : ما أردت إلى هذا ؟ لِمَ أدخلتَ يدك في جحرها تُخرجها ؟ قال : إني أحمد ؛ خفتُ أن تخرج من الجحْر فتجيء إلى أمي فتلدغها . وكان يمينه الذي يحلف به : إني أحمد وأحمد »(١).

وعن الحسن بن نوح قال : « كان كهمس يعمل في الجصّ كل يوم بِدَانِقيْن ، فإذا أمسى اشترى به فاكهة فأتى بها إلى أُمِّه »(٢) .

« وكان كهمس الدَّعَّاءُ يكسح البيت ، ويخدم أُمّه ، فأرسل إليه سليمان ابن علي الهاشمي بصُرَّةٍ ، وقال : اشترِ بها خادمًا لأُمِّك . لأنه كان مشغولًا بخدمتها ، وكان أبرَّ شيء بأمِّه ، وأراده على أن يقبلها فأبى ، فألقاها في البيت ومضى ، فأخذها كهمس ، وخرج يتبعه حتى دفعها إليه »(٣) .

« وكان عمرو بن عُبيد يأتي كهمسًا يسلّم عليه ، ويجلس عنده هو وأصحابه ، فقالت له أمه : إني أرى هذا وأصحابه وأكرههم، وما يعجبوني فلا تجالسْهم.قال : فجاء إليه عمرو وأصحابه فأشرف عليهم ، فقال : إن أمِّي قد كرهتك وأصحابك ، فلا تأتوني »(٤) .

محمد بن سيرين لا يكلِّم أُمّه إلَّا وهو يتضرَّع :

كان محمد بن سيرين لا يكلِّم أمَّه إلا كما يكَلِّمُ الأمير الذي لا يُنتَصَف منه .

وعن بعض آل سيرين قال : ما رأيتُ محمد بن سيرين يكلِّم أمَّه قطُّ إلّا وهو يتضرّع .

وعن ابن عون قال : « دخل رجل على محمد بن سيرين وهو عند أمه ،

---

(١) حلية الأولياء ٦/٢١١ .

(٢) ، (٣) ،(٤) الحلية ٦/٢١٢ .

فقال : ما شأن محمد ، أيشتكي شيئًا ؟ قالوا : لا ، ولكن هكذا يكون إذا كان عند أمه »[(١)] .

وزيْن العابدين بلغ من أدبه مع أمه أنه لا يأكل معها في صحفة :

«وكان زيْنُ العابدين بن الحسين رضي الله عنهما كثير البرِّ بأمه ، حتى قيل له : إنك من أبرِّ الناس بأُمِّك ، ولسنا نراك تأكل معها في صحفة ؟ فقال : أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقتْ إليه عينها ، فأكون قد عقَقْتُها »[(٢)] .

وطلقُ بن حبيب لا يمشي فوق ظهر بيْته وأُمُّه تحته :

وكان طلق بن حبيب من العُبَّاد والعلماء ، وكان يُقبِّل رأس أمه ، وكان لا يمشي فوق ظهر بيتٍ وهي تحته ؛ إجلالًا لها[(٣)] .

ابنُ القاسـم لله درُّه :

« حُكي عن ابن القاسم : أنه كان يُقرأ عليه « الموطأ » ؛ إذ قام قيامًا طويلًا ثم جلس ، فقيل له في ذلك ، فقال : نزلتْ أمي فسألَتْني حاجة فقامت ، فقمتُ لقيامها ، فلمَّا صعِدت جلستُ »[(٤)] .

حيْوة بن شـريح يترُك الدرس لعَلَف الدجـاج :

« وكان حَيْوَةُ بن شُرَيح - وهو أحد أئمة المسلمين - يقعد في حلقته يعلِّم الناس ، فتقول له أُمُّه : قم يا حيوة ، فألقِ الشعير للدجاج ، فيقوم ، ويترك التعليم »[(٥)] .

---

(١) المرأة وحقوقها في الإسلام للشيخ مبشِّر الطرازي ٢/٢٧٣ .
(٢) عيون الأخبار ٣/٩٧ .
(٣ ، ٤) برّ الوالدين للطرطوشي ص٧٨ .
(٥) بر الوالدين للطرطوشي ص٧٩ .

الهُذَيْل وأمُّه حفصة بنت سيرين :

« وعن هشام بن حسان قال : كان الهُذَيْل بن حفصة يجمع الحطب في الصيف ، فيقشُرُه ، ويأخذ القصب فيفلقُه . قالت حفصة : وكنتُ أجد قَرَّة[(١)] ، فكان إذا جاء الشتاء ، جاء بالكانون فيضعه خلفي وأنا في مصلّاي ، ثم يقعد فيُوقد بذلك الحطَب المقشَّر ، وذلك القصب المفلَّق وقودًا لا يؤذي دخانهُ ، ويُدفئني ، نمكث بذلك ما شاء الله . قالت : وعنده من يكفيه لو أراد ذلك . قالت : وربما أردتُ أنصرف إليه ، فأقول : يا بُني ، ارجع إلى أهلك . ثم أذكر ما يريد فأدعه »[(٢)] .

قال هشام : « وكانت له لِقْحة[(٣)] ، قالت حفصة : كان يبعث إليَّ بحَلْبةٍ بالغداة ، فأقول : يا بنيَّ ، إنك لَتعلم أني لا أشربه ، أنا صائمة . فيقول : يا أمَّ الهذيل ، إنَّ أطيب اللبن ما بات في ضروع الإبل ؛ اسقيه مَن شئت »[(٤)] .

محمد بن المُنْكدر :

« كان يضع خدَّه على الأرض ، ثم يقول لأُمِّه : قومي ضعي قدمك على خدِّي »[(٥)] .

« قال سعيد بن عامر : قال ابن المنكدر : بات أخي عمر يصلِّي وبتُّ أغمز قدم أمي ، وما أُحبُّ أن ليلتي ....

(١) القِرّة : ما أصابك من القُرِّ ، أي البرد .

(٢) صفة الصفوة ٤/٢٥ .

(٣) أي:ناقة حلوب غزيرة اللبن .

(٤) صفة الصفوة ٤/٢٥ - ٢٦ .

(٥) السير ٥/٣٥٦ .

بليلته »[١] .

منصـور بن المعتمـر :

« حدّثنا الأخنسي : سمعت أبا بكر يقول : كنتُ مع منصور جالسًا في منزله ، فتصيح به أُمّه – وكانت فظَّةً عليه – فتقول : يا منصور، يريدك ابن هُبيرة على القضاء فتأبى !! وهو واضعٌ لحيته على صدره ما يرفع طَرْفه إليها »[٢] .

بـنـدار :

« قال عبد الله بن جعفر المروزي : سمعتُ بندار يقول : أردتُ الخروج – يعني الرحلة – فمنعتني أُمي ، فأطعتها فبُورك لي فيه »[٣].

جمع حديثَ البصْرة ولم يرحل ؛ بِرًّا بأُمِّه،ثم رحل بعدها[٤].

ومِسْعَر بن كِـدام في أدَبِه إمـامٌ :

« قال محمد بن سعد : كانت لمسعر بن كدام أُمٌّ عابدة ، فكان يحمل لها لِبْدًا ، ويمشي معها حتى يُدخلها المسجد ، فيبسط لها اللبد ، فتقوم فتصلِّي ، ويتقدَّم هو إلى مقدم المسجد فيصلِّي ، ثم يقعد ، ويجتمع إليه مَن يريد فيحدِّثهم ، ثم ينصرف إليها ، فيحمل لِبدَها وينصرف معها »[٥].

ذرُّ بن عمر بن ذرّ : ما ارتقى سقْفًا كان والدُه تحته :

« ولمّا مات ذرٌّ – وكان من الأولياء – قال أبوه عمر بن ذرّ : اللهم

---

(١) السير ٥/٣٥٩ .
(٢) السير ٥/٤٠٥ .
(٣) ، (٤) السير ١٢/١٤٥ ، تاريخ بغداد ٢/١٠٢ .
(٥) صفة الصفوة ٤/٢٥ – ٢٦ .

إني قد غفرتُ له ما قصَّر فيه من واجب حقِّي ، فاغفر له ما قصَّر فيه من واجب حقِّك . فقيل له : كيف كان عشرتُه معك ؟ قال : ما مشى معي قطُّ في ليل إلّا كان أمامي ، ولا مشى معي في نهار إلّا كان ورائي ، ولا ارتقى قطُّ سقْفًا كنتُ تحته »[(١)] .

عامر بن عبد الله بن الزبير : بعد موت أبيه يمكث عامًا لا يدعو إلا بالمغفرة له :

قال عامر بن عبد الله بن الزبير : « مات أبي ، فما سألتُ الله - حَوْلًا - إلّا العفوَ عنه »[(٢)] .

عُـروة بن الزبيـر وبـرُّه :

كان رحمه الله يقول في صلاته وهو ساجد : اللهمَّ اغفرْ للزبير بن العوام ، وأسماء بنت أبي بكر . يعني : والديه رضي الله عنهما[(٣)] .

وأبو يوسـف على الطـريق :

وكان أبو يوسف القاضي يقول عُقيْبَ صلاته : اللهمَّ اغفرْ لأبويّ ولأبي حنيفة[(٤)] .

الأبَّـــار :

« قال جعفر الخلدي : كان الأبار من أزهد الناس ؛ استأذن أُمَّه في الرحلة إلى قتيبة فلم تأذن له ، ثم ماتت فخرج إلى خُراسان ، ثم وصل إلى بلخ وقد مات قتيبة ، فكان يُعزُّونه على هذا ، فقال : هذا ثمرة العلم ؛ إني اخترتُ رضا

(١) بر الوالدين للطرطوشي ص٧٦ .
(٢) عيون الأخبار ٩٨/٣ .
(٣) بر الوالدين للطرطوشي ص٧٧ .
(٤) السابق .

الوالدة »[١] .

الحافظ ابن عساكر صاحب « تاريخ دمشق » :

« قال ابن النجار : قرأتُ بخطِّ معمر بن الفاخر في « معجمه » : أخبرني أبو القاسم الحافظ إملاءً بمنى ، وكان من أحفظ مَن رأيتُ ، وكان شيخنا إسماعيل بن محمد الإمام يفضِّله على جميع من لاقيْناهم ، قدم أصبهان ونزل في داري ، وما رأيتُ شابًّا أحفظَ ولا أورع ولا أتقن منه ، وكان فقيهًا أديبًا سنيًّا ؛ سألتُه عن تأخره عن الرحلة إلى أصبهان ؛ قال : استأذنتُ أمي في الرحلة إليها فما أذِنَتْ »[٢] .

أمثلةٌ عَطِرة في عُلُوِّ الهِمَّة في الأدب :

أدب الفاروق عمر رضي الله عنه :

« قال عمر : أبو بكر سيدنا أعتقَ بلالًا سيدنا »[٣] .

« عن يحيى بن سعد قال : ذكر عمر فضل أبي بكر ، فجعل يصف مناقبه ... ثم قال : وهذا سيدنا بلال حَسَنَةٌ من حسناته »[٤] .

« وعن عمر أنه لم يلقَ أسامة قط إلّا قال : السلام عليك أيُّها الأمير ورحمة الله . تُوفي رسول الله ﷺ وأنت عليَّ أمير »[٥] .

« عن ابن أبي الهذيل قال : دعا عمر زيد بن صوحان ، فضَفَنَه على الرَّحْل كما تَضْفِنُون أمراءكم ، ثم التفتَ إلى الناس فقال : اصنعوا هذا بزيد

(١) السير ١٣/٤٤٣ ، تذكرة الحفاظ ٢/٦٣٩ .
(٢) السير ٢٠/٥٦٧ ، تذكرة الحفاظ ٤/١٣٣٣ .
(٣) السير ١/٣٥٩ .
(٤) السير ٢/٩٦ ، وابن سعد ٤/٢٠ .
(٥) السير ٣/٥٢٧ ، وطبقات ابن سعد ٦/١٢٤ .

وأصحابِ زيد »[١].

أدب معاذِ بن جبل :

عن معاذ قال : ما بذقت على يميني منذ أسلمتُ[٢] .

أدب العباس بن عبد المطَّلب :

عن أبي رزيق قال : قيل للعباس : أنت أكبر أو النبي ؟ قال : هو أكبر وأنا وُلِدْتُ قبلَه[٣] .

أدبُ عليٍّ رضي الله عنه :

عن صُهَيْب مولى العباس ، قال : رأيتُ عليًّا يقبِّل يد العباس ورِجْله ويقول : يا عمّ ، ارضَ عني .

قال الذهبي في « السير » (٢/٩٤) : « إسناده حسن » .

أدبُ ابنِ عبَّاس :

« عن أبي سَلَمَة أن ابن عباس قام إلى زيد بن ثابت فأخذ له بركابه ، فقال تنحَّ يا ابن عمِّ رسول الله ﷺ . فقال : هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا »[٤] .

أدب عِمران بن حُصَيْن رضي الله عنه :

« عن عمران بن حُصين قال : ما مسستُ ذكري بيميني منذ بايعتُ رسول الله ﷺ »[٥].

---

(١) السير ١/٤٥٥ .

(٢) السير ٢/٨٠ ، ومجمع الزوائد ٩/٢٧٠ .

(٣) السير ٢/٩٧ .

(٤) السير ٢/٤٣٧ ؛ إسناده حسن : أخرجه ابن سعد ٢/٣٦٠ وصحَّحه الحاكم وأقرّه الذهبي .

(٥) السير ٢/٥٠٩ ؛ رجاله ثقات ، وصحّحه الحاكم وأقرّه الذهبي .

أدب عَـدِيّ بن حاتِـمٍ رضي الله عنه :

عن مغيرة قال : خرج عدي وجرير البجلي وحنظلة الكاتب من الكوفة ، فنزلوا « قَرْقيسياء » وقالوا : لا نقيم ببلدٍ يُشتمُ فيها عثمان(١).

أدب ابنِ عُمَـر رضي الله عنه :

عن مجاهد قال : ربَّما أخذَ ابن عمر لي بالرِّكَاب(٢).

أدب زرّ بن حبيـش :

عن عاصم ، قال : كان أبو وائل عثمانيًّا ، وكان زرُّ بن حبيش عَلَوِيًّا ، وما رأيتُ واحدًا منهما قطُّ تكلَّم في صاحبه حتى ماتا ، وكان زرّ أكبر من أبي وائل ، فكانا إذا جلسا جميعًا لم يحدِّث أبو وائل مع زرٍّ . يعني يتأدّب معه لسِنِّه(٣) .

أدب أبي العاليـة :

عن أبي العالية قال : ما مسست ذَكَري بيميني منذ ستين أو سبعين سنة(٤) .

أدب سـعيد بن المسيِّب :

قال سعيد : لا تقولوا : مُصيْحف . ولا مُسيْجد ؛ ما كان لله فهو عظيم ، حسن جميل(٥).

---

(١) السير ٣/١٦٥ ، تاريخ بغداد ١/١٩١ .
(٢) السير ٤/٤٥٢ .
(٣) السير ٤/١٦٨ .
(٤) السير ٤/٢١٠ ، الحلية ٢/٢١٩ .
(٥) السير ٤/٢٣٨ ، طبقات ابن سعد ٥/١٣٧ .

علي بن الحُسَيْن :

قيل : كان عليُّ بن الحُسيْن إذا سار في المدينة على بغلته ، لم يقلْ لأحدٍ : الطريق . ويقول : هو مشترك ؛ ليس لي أن أُنحي عنه أحدًا[١].

أدبُ الحَسَن البصري :

قال سفيان بن عُيينة : إن الحسن البصري لمّا مات مسلم بن يسار ، قال : وامعلّماه[٢] .

أدب عطاء بن أبي رَبَاح :

عن ابن جُريج ، عن عطاء قال : إن الرجل لَيحدِّثني بالحديث فأُنصِت له كأني لم أسمعْه ، وقد سمعتُه قبل أن يُولد[٣].

أدب عمر بن عبد العزيز :

عن أيُّوب قال : قيل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، لو أتيتَ المدينة ، فإنْ قضى الله موتًا، دُفِنتَ في موضع القبر الرابع مع رسول الله ﷺ. قال: والله لَأَنْ يعذِّبني الله بغير النار، أحبُّ إلي من أن يعلم من قلبي أني أراني لذلك أهلًا[٤].

أدب أبي وائل :

قال عاصم بن أبي النجود : ما قدمتُ على أبي وائل من سَفَر إلا قبَّل كَفِّي[٥] .

---

(١) السير ٣٩٨/٤ .
(٢) السير ٥١٣/٤ ، وتاريخ ابن عساكر ٢٤٩/١٦أ .
(٣) السير ٨٦/٥ .
(٤) السير ١٤١/٥ ، وطبقات ابن سعد ٤٠٤/٥ .
(٥) السير ٢٥٧/٥ .

قتـادة :

قال قتادة : لقد كان يستحبُّ ألّا تقرأ الأحاديث التي عن رسول الله ﷺ إلّا على طهارة[١] .

الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة :

« قال أبو مصعب : كان مالك لا يُحدِّثُ إلّا وهو على طهارة ، إجلالًا للحديث »[٢] .

كان مالك بن أنس إمام دار الهجرة لا يركب دابَّة بالمدينة ، ويقول : أوقر أرضًا دُفِنَ فيها رسول الله ﷺ .

« قال أبو مصعب : كانوا يزدحمون على باب مالك حتى يقتتلوا من الزحام ، وكنا إذا كنا عنده لا يلتفت ذا إلى ذا قائلون برؤوسهم هكذا ، وكانت السلاطين تهابه ، وكان يقول : لا . ونعم . ولا يُقال له : مِن أين قلتَ ذا ؟ » .

« وقال ابن وهب : ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلَّمنا من علمه »[٣] .

قال ابن القاسم : قيل لمالك : لِمَ لمْ تأخذ عن عمرو بن دينار ؟ قال : أتيتُه ، فوجدتُه يأخذون عنه قيامًا ، فأجْللتُ حديث رسول الله ﷺ أن آخذه قائمًا[٤] .

الإمـام المبـارك : عبد الله بن المبـارك :

قال يحيى بن يحيى اللَّيْثي : كنا عند مالك فاستُؤذن لعبد الله بن المبارك

---

(١) السير ٥/٢٧٤ .

(٢) ، (٣) انظر ترجمة مالك في السير ٨/٤٨ - ١٣٥ .

(٤) السير ٨/٦٧ .

بالدخول فأُذن له ، فرأينا مالكًا تزحزح له في مجلسه ، ثم أقعده بلصقه ، وما رأيتُ مالكًا تزحزح لأحد في مجلسه غيره ، فكان القارئ يقرأ على مالك ، فربما مرّ بشيء فيسأله مالك : ما مذهبكم في هذا ؟ أو : ما عندكم في هذا ؟ فرأيتُ ابن المبارك يجاوبه ، ثم قام فخرج فأُعجِب مالك بأدبه ، ثم قال لنا مالك : هذا ابن المبارك فقيهُ خراسان .

وسُئل ابن المبارك بحضور سفيان بن عيينة فقال : إنَّا نُهينا أن نتكلَّم عند أكابرنا[١] .

قال حبيب الجلّاب : سألتُ ابن المبارك : ما خيرُ ما أعطي الإنسانُ ؟ قال : غريزةُ عقل . قلتُ : فإن لم يكن ؟ قال : حُسْن أدب . قلتُ : فإن لم يكن ؟ قال : أخٌ شفيق يستشيره . قلتُ : فإن لم يكن ؟ قال : صمتٌ طويل . قلتُ : فإن لم يكن ؟ قال : موت عاجل[٢] .

« قال إسماعيل الخطبي : بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حمَّاد بن زيد ، فقال أصحاب الحديث لحمَّاد : سلْ أبا عبد الرحمن أنْ يحدثنا . فقال : يا أبا عبد الرحمن ، تحدِّثهم ؟ فإنهم قد سألوني . قال : سبحان الله يا أبا إسماعيل !! أحدِّث وأنت حاضر ؟! قال : أقسمتُ عليك لَتفعلنَّ . فقال : خذوا ؛ حدَّثنا أبو إسماعيل حمَّاد بن زيد ... فما حدّث بحرف إلا عن حمَّاد »[٣] .

سفيان بن عُيَيْنة شيخُ الحِجَاز :

قال إبراهيم بن الأشعث : رأيتُ سفيان ابن عُيينة يقبِّل يَدا الفضيل مرَّتيْن[٤] .

---

(١) السير ٨/٤٢٠ .
(٢) السير ٨/٣٩٧ .
(٣) السير ٨/٣٨٢ ، وتاريخ بغداد ١٠/١٥٥ .
(٤) السير ٨/٤٣٨ .

وقال موسى بن داود : كنتُ عند ابن عيينة ، فجاء حسين الجعفي ، فقام سفيان وقبّل يده(١) .

أدب الأوزاعي :

قال عطاء الخفاف : كنتُ عند الأوزاعي ، فأراد أن يكتب إلى أبي إسحاق الفزاري ، فقال لكاتبه : ابدأ به ؛ فإنه والله خير مني(٢) .

قال العباس بن الوليد : فما رأيتُ أبي يتعجَّب من شيء في الدنيا تعجُّبه من الأوزاعي ، فكان يقول : سبحانك تفعل ما تشاء !! كان الأوزاعي يتيمًا فقيرًا في حِجْر أُمِّه ، تنقله من بلد إلى بلد وقد جرىٰ حُكْمُك فيه أن بلَّغتَه حيث رأيتُه . يا بني ، عجزتِ الملوك أن تؤدِّب أنفسَها وأولادها أدبَ الأوزاعي في نفسه ، ما سمعتُ منه كلمةً قطُّ فاضلة إلّا احتاج مستمعُها إلى إثباتها عنه ، ولا رأيتُه ضاحكًا قطُّ حتى يُقهقه ، ولقد كان إذا أخذَ في ذكْر المعاد أقول في نفسي : أترى في المجلس قلبٌ لم يبكِ(٣) .

أدبُ سفيان الثوري مع الأوزاعي وابن أدهم :

قال عثمان بن عاصم : « رأيتُ سفيان الثوري بمكة آخِذًا بزمام ناقة الأوزاعي وهو يقول : كُفّوا عنا يا معشر الشباب حتى نُسَلّل الشيخ »(٤) .

وقال عثمان بن عاصم أيضًا : « رأيتُ شيخًا بين الصفا والمروة على ناقة

---

(١) السير ٣٩٧/٩ - ٤٠١ .
(٢) انظر السير ٥٤٢/٨ .
(٣) انظر السير ١٠٧/٧ - ١٣٤ .
(٤) الجرح والتعديل ٢٠٧/١ ، ونسلل : أي نخرجه من الزحام .

وشيخًا يقوده ، واجتمع أصحاب الحديث عليه ، فجعل الشيخ الذي يقود الشيخ يقول : يا معشر الشباب ، كفُّوا حتى نسلَّ الشيخ : فقلتُ : من هذا الراكب ؟ قالوا : هذا الأوزاعي . قلتُ : فمن هذا الذي يقوده ؟ قالوا : سفيان الثوري .

وقال رجل من ولد الأحنف بن قيس : بلغني أن سفيان الثوري بلغه مقدم الأوزاعي ، فخرج حتى لقيه بـ « ذي طوىٰ » . قال : فحلَّ سفيان رأس البعير ووضعه على رقبته ، فكان إذا مرَّ بجماعة قال : الطريق للشيخ .

وقال سلمة بن كلثوم : جاء سفيان الثوري فدخل على الأوزاعي ، فجلسا من الأولىٰ إلى العصر ، قد أطرق كل واحد منهما ؛ توقيرًا لصاحبه[١] .

وقال يحيى بن يمان : كان سفيان إذا قعد مع إبراهيم تحرَّز من الكلام[٢] .

أدب إبراهيم بن أدهم وعطْفه على الأصاغر :

كان إبراهيم بن أدهم في الحصاد ، وكان يُطعم الأصحاب ، وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام ، وكان رحمه الله ربَّما يتأخَّر في بعض الأيام في العمل ؛ فقالوا ليلة : تعالَوا نأكل فطورَنا دُونه ، حتى يعود بعد هذا يُسرع ، فأفْطروا وناموا ، فرجع إبراهيم فوجدهم نيامًا ، فقال : مساكين ؛ لعلهم لم يكن لهم طعام . فعمد إلى شيء من الدقيق فعجنه ، فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضعًا محاسنه على التراب ، فقالوا له في ذلك ، فقال : قلتُ : لعلَّكم لم تجدوا فطورًا فنمتم . فقالوا : انظروا بأي شيء عاملناه ، وبأي شَيْءٍ يعاملنا .

---

(١) الجرح والتعديل ١/٢٠٨ .

(٢) السير ٧/٣٩٣ .

أدب الشافعي :

عُوتب رحمه الله على تواضعه للعلماء ، فقال :

أهين لهمْ نفسي فهمْ يُكرمونها ولنْ تُكرَمَ النَّفْسُ التي لا تُهينها(١)

وقال الشافعي رحمه الله : كنتُ أقلب الصفحة بين يدي مالك صفحًا رقيقًا ؛ هيبة له ؛ لئلَّا يسمع ورقها(٢) .

قال ابن جماعة الكناني : « ليعلم طالبُ العلم أنَّ ذلَّه لشيخه عزٌّ ، وأن خضوعه له فخرٌ ، وتواضعه له رِفعة ، وعلى طالب العلم أن ينظر شيخه بعين الإجلال ؛ فإنَّ ذلك أقرب إلى نفْعِه به ، وكان بعض السلف إذا ذهب إلى شيخه تصدَّق بشيء ، وقال : اللهمَّ استر عيْب شيخي عني ، ولا تُذهب بركة علْمه مني »(٣) .

وكيع بن الجرَّاح :

قال سَلْمُ بن جُنادة : جالَستُ وكيعًا سبع سنين ، فما رأيتُه بزق ، ولا مسَّ حصاةً ، ولا جلس مجلسًا فتحرَّك ، وما رأيتُه إلا مستقبلَ القبلة ، وما رأيتُه يحلف بالله(٤) .

يحيٰى بن يحيٰى بن كثير ؛ الإمام المالكي الكبير :

قال الذهبي : بلغَنَا أنَّ يحيٰى بن يحيٰى اللَّيْثي كان عند مالك بن أنس رحمه الله ، فمر على باب مالكٍ الفيلُ ، فخرج كلُّ مَن كان في مجلسه لرؤية الفيل ،

---

(١) فضل العلم لمحمد سعيد رسلان ص١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) المجموع ١/٣٦ .

(٣) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة الكناني ص٨٧ .

(٤) انظر سير أعلام النبلاء ٩/١٤٠ - ١٦٨ .

سوى يحيى بن يحيى فلم يقمْ ، فأُعجب به مالك وسأله : مَن أنت ؟ وأين بلدك ؟ ثم لم يزلْ بعدُ مكْرِمًا له .

وعن يحيى بن يحيى قال : أخذتُ بركاب الليث ، فأراد غلامه أن يمنعني ، فقال الليث : دعْه . ثم قال لي : خدَمَكَ العلْمُ . قال : فلم تزلْ بي الأيام حتى رأيتُ ذلك[1] .

أدَبُ الربيع بن سليمان المرادي مع شيْخه الشافعي :

قال الربيع بن سليمان : والله ما اجترأتُ أن أشرب الماء ، والشافعي ينظر ؛ هيبةً له[2] .

أدب إمام أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل :

لله درُّ من قال في إمام أهل السنة :

يَزينك إمَّا غابَ عنكَ فإنْ دنا ... رأيتَ له وجْهًا يسرُّك مُقْبِلَا
يُعَلِّمُ هذا الخلْقَ ما شذَّ عنهُمُ ... من الأدبِ المجهولِ كَهْفًا ومَعْقِلَا
وإخوانُه الأدنَوْنَ كُلُّ مُوَفَّقٍ ... بصيرٍ بأمْرِ الله يسمو على العلا[3]

أمّا أدبه مع شيوخه : فقد كان فوق الوصف ، وكان ابن حنبل آية في الأدب .

« قال أحمد بن سعيد الرباطي : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول : أخذنا هذا العلمَ بالذُّلِّ ، فلا ندفعه إلا بالذُّلِّ[4]».

قال أحمد بن حنبل : لزمتُ هشيمًا أربع سنين - أو خمسًا - ما سألتُه

---

(١) السير ١٠/٥٢١ .
(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ١/٢٢٦ .
(٣) السير ١١/٢٠١ .
(٤) السير ١١/٢٣١ .

عن شيء إلَّا مرتين ؛ هيبةً له[١].

« وقال عمرو الناقد : كنا عند وكيع ، وجاء أحمد بن حنبل فقعد ، وجعل يصف من تواضعه بين يديه ، قال عمرو : فقلت : يا أبا عبد الله ، إن الشيخ يُكرمك فما لك لا تتكلّم ؟ قال : وإن كان يكرمني ، فينبغي لي أن أجلَّه .

وقال قتيبة بن سعيد : قدمتُ بغداد وما كانت لي همّة إلا أن ألقىٰ أحمد ابن حنبل ، فإذا هو قد جاءني مع يحيىٰ بن معين فتذاكرنا ، فقام أحمد بن حنبل وجلس بين يديّ ، وقال : أَمْلِ عليَّ هذا . ثم تذاكرنا ، فقام أيضًا وجلس بين يديّ ، فقلتُ : يا أبا عبد الله ، اجلسْ مكانك . فقال : لا تشتغلْ بي ، إنما أريد أن آخذ العلم على وجهه .

وقال إسحاق الشهيد : كنتُ أرى يحيىٰ القطَّان يصلِّي العصر ، ثم يستند إلى أصل منارة مسجد ، فيقف بين يديْه : عليُّ بن المديني ، والشاذكوني ، وعمرو بن علي ، وأحمد بن حنبل ، ويحيىٰ بن معين ، وغيرهم ، يستمعون الحديث ، وهم قيام على أرجلهم ، إلى أن تحين صلاة المغرب ، لا يقول لأحد منهم : اجلسْ ؛ ولا يجلسون هيبةً وإعظامًا .

وقال خلف : جاءني أحمد بن حنبل يسمع حديث أبي عُوانة ، فاجتهدتُ أن أرفعه فأبى وقال : لا أجلس إلَّا بين يديك ، أُمِرْنا أن نتواضع لمن نتعلَّم منه[٢] .

قال الحسن بن إسماعيل : سمعتُ أبي يقول : كان يجتمع في مجلس أحمد زهاءَ خمسةِ آلافٍ أو يزيدون ، أقل من خمسمائة يكتبون ، والباقون يتعلَّمون

---

(١) السير ٨/٢٩٠ .

(٢) مناقب الإمام أحمد ٨٢ - ٨٣ .

منه حُسْن الأدب وحسن السَّمْت[١].

وقال إبراهيم الحربي : كان أحمد بن حنبل كأنه رجل قد وُفِّق للأدب ، وسُدِّد بالحلْم ، ومُلِئ بالعلم ، أتاه رجل يومًا فقال له : عندك كتاب زندقة ؟ فسكت ساعةً ثم قال له : إنما يُحرز المرء قبره[٢].

قال الميموني : قال لي أحمد : يا أبا الحسن ، إياك أن تتكلّم في مسألة ليس لك فيها إمام[٣] .

وقال أبو بكر بن المُطَّوِّعي : اختلفتُ إلى أبي عبد الله ثنتي عشرة سنة ، وهو يقرأ « المسند » على أولاده ، فما كتبتُ عنه حديثًا واحدًا ، إنما كنتُ أنظر إلى هدْيه وأخلاقه[٤].

وعن ابن المنادي ، عن جده أبي جعفر قال : كان أحمد من أحيا الناس وأكرمهم ، وأحسنهم عشرةً وأدبًا ، كثيرَ الإطراق ، لا يُسمَع منه إلا المذاكرة للحديث وذِكْر الصالحين في وقارٍ وسكون ولفظ حسن ، وإذا لقيه إنسان بشَّ به وأقبل عليه ، وكان يتواضع للشيوخ شديدًا ، وكانوا يعظِّمونه ، وكان يفعل بيحيى بن معين ما لم أره يعمل بغيره ، من التواضع والتكريم والتبجيل . كان يحيى أكبر منه بسبْعِ سنين[٥].

وقال حنبل : رأيتُ أبا عبد الله إذا أراد القيام ، قال لجلسائه : إذا شئتم .

« ومن آدابه : قال عبد الله بن أحمد : رأيتُ أبي يأخذ شعرةً من شعر

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص٢٧١ .

(٢) مناقب الإمام أحمد ص ٢٨٧ .

(٣) السير ١١/٢٩٦ .

(٤) السير ١١ / ٣١٦ .

(٥) السير ١١/٣١٧ - ٣١٨ .

النبي ﷺ ، فيضعها على فيه ويقبّلها ، وأحسب أني رأيتُه يضعها على عينه ، ويغمسها في الماء ويشربه ، يستشفي به .

ورأيتُه أخذ قصعة النبي ﷺ ، فغسَلَها في حُبِّ الماء ثم شرب فيها .

قال الذهبي : قلتُ : أين المتنطِّع المنكر على أحمد ... أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البدع »[١] .

وقال الميموني : قال لي القاضي محمد بن محمد بن إدريس الشافعي : قال لي أحمد : أبوك أحد السِّتة الذين أدعو لهم سحَرًا[٢] .

وقال أحمد رحمه الله : « ما مسَّ أحدٌ بيده محبرة إلّا وللشافعي في عنقه مِنَّة » .

وقال رحمه الله : كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن ، فانظر : هل عن هذيْن من عِوَض ؟ .

قال ابن حنبل : « ما صلَّيتُ صلاةً منذ أربعين سنة ، إلّا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله .

قال المروزي : رأيتُ أبا عبد الله إذا كان في البيت ؛ عامّة جلوسه متربِّعًا خاشِعًا ، فإذا كان بَرًّا ، لم يتبيَّن منه شدَّة خشوع .

قال أبو زُرعة : كنتُ عند أحمد بن حنبل ، فذكر إبراهيم بن طهمان - وكان متَّكئًا من عِلَّة - فجلس وقال : لا ينبغي أن يُذكَر الصالحون فيُتَّكَأ »[٣] .

---

(١) السير ٢١٢/١١ .

(٢) السير ٢٢٧/١١ .

(٣) السير ٣٨١/٧ .

أدب يحيىٰ بن سعيد القطّان :

انظرْ إلى أدبه مع إخوانه وأقرانه :

قال يحيى بن سعيد القطان رحمه الله: «ما صلَّيتُ صلاةً منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي؛ لِما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووفَّقه للسداد فيه»(١).

الإمام مسلم بن الحجَّاج وأدبُه مع شيخه البخاري :

قال محمد بن حمدون بن رستم : سمعتُ مسلم بن الحجاج ، وجاء إلى البخاري فقال : دعني أُقبِّل رجليْك يا أُستاذ الأُستاذِين ، وسيِّد المُحَدِّثين ، ويا طبيب الحديث في عِلَلِه .

أبو عُمر محمد بن يوسف القاضي وأدبه مع إبراهيم الحربي :

لمّا دخل شيخ الإسلام أبو إسحاق إبراهيم الحربي على إسماعيل القاضي ؛ بادَر أبو عمر محمد بن يوسف القاضي إلى نعْلِهِ ، فأخذها فمسحها من الغبار ، فدعا له ، وقال : أعزَّك الله في الدنيا والآخرة . فلمّا تُوفي أبو عمر ، رُئِيَ في النوم ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : أعزَّني في الدنيا والآخرة بدعوة الرجل الصالح(٢) .

أدبُ العلماء مع شيخ الإسلام البوشنجي :

قال أبو زكريا العنبري : شهدتُ جنازة الحسين القبّاني ، فصلَّى بنا عليه أبو عبد الله البوشنجي ، فلمّا أرادوا الانصراف ؛ قُدِّمتْ دابَّة أبي عبد الله ، وأخذ أبو عمرو الخفاف بلجامه ، وأخذ إمام الأئمة بركابه ، وأبو بكر الجارودي ، وإبراهيم بن أبي طالب يُسوِّيان عليه ثيابه ، فلم يمنع واحدًا منهم

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٤٥ .

(٢) السير ١٣/٣٥٧ - ٣٥٨ .

ومضى[١] .

وقال البوشنجي رحمه الله : مَن أراد العلم والفقه بغير أدب ؛ فقد اقتحم أن يكذب على الله ورسوله[٢] .

الحافظ السِّلَفي :

قال عنه عبد القادر الحافظ : كان أبو طاهر - السلفي - لا تبدو منه جفوة لأحد ، ويجلس للحديث فلا يشرب ماء ، ولا يبزق ولا يتكلّم ، ولا يتورَّك ، ولا تبدو له قدم وقد جاوز المائة[٣] .

أسدُ الشام ، الشيخ الزاهد العابد : عبد الله اليونيني :

حكى الشيخ عبد الصمد قال : والله مذ خدمتُ الشيخ عبد الله ، ما رأيتُه استند ولا سعلَ ولا بصَق[٤] .

أبو علي الدقَّاق :

قال أبو القاسم القشيري : « كان الأستاذ أبو علي لا يستند إلى شيء ، فكان يومًا في مجمع ، فأردتُ أن أضع وسادةً خلف ظهْره ؛ لأني رأيتُه غيرَ مستند ، فتنحى عن الوسادة قليلًا ، فتوهَّمتُ أنه توقى الوسادة ؛ لأنه لم يكن عليها خِرْقة أو سَجَّادة ، فقال : لا أريد الاستناد . فتأمَّلتُ بعد ذلك أنه لا يستند إلى شيء أبدًا » .

أبو بكر الكتاني :

« قال أبو بكر الكتاني : صحبني رجلٌ وكان على قلبي ثقيلًا ، فوهبتُ

---

(١) السير ١٣/٥٨٢ - ٥٨٣ .

(٢) السير ١٣/٥٨٦ .

(٣) السير ٢١/٥ - ٣٩ .

(٤) السير ٢٢/١٠٢ - ١٠٣ .

له شيئًا بنيَّة أن يزول ثِقَلُه مِن قلبي فلم يَزُلْ ، فخلوتُ به يومًا وقلتُ له : ضعْ رِجْلَك على خدِّي فأبى ، فقلتُ له : لا بدَّ من ذلك ، ففعلَ ذلك فزال ما كنتُ أجده في باطني .

قال الرقي : قصدتُ من الشام إلى الحجاز حتى سألتُ الكتَّاني عن هذه الحكاية »(١) .

أبـو عبـد الله بن خفيف :

« ورد عليّ بن بندار على أبي عبد الله بن خفيف زائرًا ، فتماشَيَا فقال له أبو عبد الله : تقدَّمْ . فقال : بأيِّ عذر ؟ فقال : بأنك لقيتَ الجنيد وما لقيتُه »(٢) .

درجـات الأدب :

وعالي الهمَّة هو مَن استكمل درجات الأدب ، وترقَّى فيها درجة بعد درجة . وهذه الدرجات ذكَرَها شيخ الإسلام الهروي في « منازل السائرين » ، وشرحها ابن القيم في شرحه المبارك « مدارج السالكين » .

قال الهروي : « وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى :مَنْعُ الخوف أن يتعدَّى إلى اليأس ، وحبْسُ الرجاء أن يخرجَ إلى الأمْن ، وضبْطُ السرور أن يضاهئ الجرأة » :

قال ابن القيم : « يريد : أنه لا يدع الخوف يُفضي به إلى حدٍّ يُوقعه في القنوط ، واليأس من رحمة الله ، فإن هذا الخوف مذموم .

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : حدُّ الخوْف ما حجزك عن معاصي الله ، فما زاد على ذلك ، فهو غير محتاج إليه .

---

(١) ، (٢) عوارف المعارف للسهروردي ص٢٨٣ .

وهذا الخوف الموقع في الإياس : إساءة أدب على رحمة الله التي سبقتْ غضَبَه، وجهلٌ بها .

وأما حبْس الرجاء أن يخرج إلى الأمن : فهو أن لا يبلغ به الرجاء إلى حدٍّ يأمن معه العقوبة ؛ فإنه لا يأمن مكرَ الله إلّا القوم الخاسرون . وهذا إغراق في الطَرَفِ الآخر . بل حدُّ الرجاء : ما طيَّب لك العبادة ، وحملك على السير ، فهو بمنزلة الرياح التي تُسيِّر السفينة ، فإذا انقطعتْ وقفتِ السفينة ، وإذا زادت ألقتْها إلى المهالك ، وإذا كانت بقدَرٍ أوصلتْها إلى البُغية .

وأمّا ضبْط السرور أن يخرج إلى مشابهة الجرأة : فلا يقدر عليه إلّا الأقوياء أرباب العزائم ، الذين لا تستفزُّهم السَّرَّاء فتغلب شكْرَهم ، ولا تُضعفهم الضرَّاء فتغلب صبرهم . كما قيل :

لا تغلب السراءُ منهمْ شُكرهُمْ   كلَّا ولا الضرّاءُ صبْرَ الصابرِ

والنفس قرينة الشيطان ومصاحِبتُه ، وتشبهه في صفاته . ومواهب الربِّ تبارك وتعالى تنزل على القلب والرُّوح ، فالنفس تسترِقُ السمْع ، فإذا نزلت على القلب تلك المواهب ؛ وثَبَتْ لتأخذ قِسطًا منها ، وتصيّره من عُدَّتها وحواصلها ، فالمسترسِل معها ، الجاهل بها : يدَعُها تستوفي ذلك . فبينا هو في موهبة القلب والروح وعدَّةٍ وقوَّةٍ له ؛ إذ صار ذلك كلّه من حاصل النفس وآلتها وعددها ، فصالتْ به وطغت ؛ لأنها رأت غناها به . والإنسان يطغىٰ أن رآه استغنى بالمال ، فكيف بما هو أعظم خطرًا ، وأجلُّ قدْرًا من المال ، بما لا نسبة بينهما ؛ من علمٍ أو حال ، أو معرفة أو كشف ؟! فإذا صار ذلك من حاصلها ؛ انحرف العبد به - ولا بد - إلى طَرَف مذموم ؛ من جرأة ، أو شطْح ، أو إدلال ، ونحو ذلك .

فوالله ِكم هاهنا من قتيل وسليب وجريح ، يقول : مِن أين أُتيتُ ؟ ومن أين دُهِيتُ ؟ ومن أين أُصبتُ ؟ وأقلُّ ما يُعاقَب به من الحرمان بذلك : أن

يغلق عنه باب المزيد . ولهذا كان العارفون وأرباب البصائر إذا نالوا شيئًا من ذلك ؛ انحرفوا إلى طَرَف الذلّ والانكسار ومطالعة عيوب النفس ، واستدعَوْا حارس الخوف ، وحافظوا على الرباط بملازمة الثغْر بين القلب وبين النفس ، ونظروا إلى أقرب الخلْق من الله ، وأكرمهم عليه ، وأدناهم منه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهًا ، وقد دخل مكّة يوم الفتح وذقْنُه تمسُّ قُربوسَ سَرْجِه ؛ انخفاضًا وانكسارًا ، وتواضعًا لربِّه تعالى في مثل تلك الحال ، التي عادة النفوس البشرية فيها : أن يملكَها سرورُها ، وفرحُها بالنصر والظفر والتأييد ، ويرفعها إلى عنان السماء .

فالرجل : مَن صان فتْحَهُ ونصيبَه من الله ، ووارَاه عن استرقاق نفسه ، وبخِلَ عليها به . والعاجز : مَن جاد لها به . فيا له من جُود ما أقبحه !! وسماحة ما أسْفَهَ صاحبها !! والله المستعان »[١] .

الدرجة الثانية : « الخروج من الخوف إلى ميدان القبْض ، والصُّعُود مِن الرجاء إلى ميدان البسْط ، ثم الترقِّي من السرور إلى ميدان المشاهدة » :

قال ابن القيم : « ذكَر في الدرجة الأولى : كيف يحفظ الحدّ بين المقامات ، حتى لا يتعدَّى إلى غلوٍّ أو جفاء ، وذلك سوء أدب .

فذكر مع الخوف : أن يخرجه إلى اليأس ، ومع الرجاء : أن يُخرجه إلى الأمن ، ومع السرور : أن يخرجه إلى الجرأة .

ثم ذكر في هذه الدرجة : أدبَ الترقّي من هذه الثلاثة إلى ما يحفظه عليها ، ولا يضيِّعها بالكلِّيَّة . كما أنَّ في الدرجة الأولى : لا يبالغ به ، بل يكون خروجه من الخوْف إلى القبْض ؛ يعني : لا يزايل الخوْف بالكلِّية ، فإن قبضه لا يُؤْيسُه ولا يقنطه ، ولا يحمله على مخالفة ولا بطالة .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٣ - ٣٩٥ .

وكذلك رجاؤه : لا يقعد به عن ميدان البسْط ، بل يكون بين القبْض والبسْط ، وهذه حال الكُمَّل ، وهي السيْر بين القبْض والبسط .

وسروره : لا يقعد به عن ترقِّيه إلى ميدان مشاهدته ، بل يرْقى بسروره إلى المشاهدة ، ويرجع من رجائه إلى البسْط ، ومن خوْفه إلى القبْض .

ومقصـوده : أن ينتقل من أشباحِ هذه الأحوال إلى أرواحها ؛ فإن الخوف شَبحٌ والقبْض رُوحه ، والرجاء شبح والبسْط روحه ، والسرور شبح والمشاهدة روحه ، فيكون حظُّه من هذه الثلاثة : أرواحها وحقائقها ، لا صُوَرها ورسومها »[1] .

الدرجة الثالثة: «معرفة الأدب، ثم الفَناء عن التأدُّب بتأديب الحقِّ ، ثم الخلاص مِن شهود أعباءِ الأدب » :

قال ابن القيم : « قوله : « معرفة الأدب » : يعني لا بد من الاطِّلاع على حقيقته في كل درجة ، وإنما يكون ذلك في الدرجة الثالثة ، فإنه يُشرِف منها على الأدب في الدَّرجتين الأُولَيَيْن، فإذا عرفه وصار له حالًا؛ فإنه ينبغي له أن يفنى عنه ، بأن يُغَلِّب عليه شهودَ مَن أقامه فيه ، فينسبَهُ إليه تعالى دون نفسه ، ويَفنَى عن رُؤية نفسه وقيامها بالأدب ؛ بشهود الفضل لمَن أقامها فيه ومِنَّته . فهذا هو الفناء عن التأدُّب بتأديب الحق »[2] .

فيا له من مقام ، يُجمّل العبادة ، وينظِّم كلَّ الحياة ، وتُوزَن به الأحوال والمقامات !!

* * *

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٢) مدارج السالكين ٢/٣٩٦ .